عودة إلى الذات

أكرم أنطاكي



معابر للنشر 2013

عنوان الكتاب: عودة إلى الذات

تأليف: أكرم أنطاكي

إخراج وغلاف: دارين أحمد

الطبعة الأولى، 2013

معابر للنشر والتوزيع

سوريا، دمشق

ص ب: 5866

هاتف: 3312257 – 11– 00963

بريد إلكتروني: maaber@scs-net.org

عودة إلى الذات

أكرم أنطاكي

لم أَخَفْ يوماً من التمعن في الدموع الحارة للألم الإنساني، وإن نفسي لم تلتجئ يوماً إلى قوقعتها الأنانية هرباً من ذلك الجحيم، إنما، وبكلِّ تواضع، كانت هذه الدموع هي التي حركتني طيلة حياتي

إلهي، كم سيء أن تُحصر الإساءة في أعماق الذات الإنسانية وأن يتم التغافل عن مسبباتها في العالم المحيط!

مقدمة*

جاء في القانون الأخلاقي لسكان أميركا الأصليين: **ابحثْ عن نفسك بنفسك. لا تسمح للآخرين أن يَخطُّوا لك دربك. إنه طريقك أنت – طريقك أنت وحدك. يجوز للآخرين أن يقطعوه معك، لكنْ ليس لأحد أن يقطعه عنك.**

هكذا كان أكرم. أمضى سنين عمره باحثاً عن الحقيقة، سابراً أغوار ذلك الطريقِ المحفوف بالمخاطر والصعاب، يُلهِمْهُ في ذلك عقلٌ جدليٌ متوقدٌ ومستنير، قادرٌ على تحطيم كل البديهيات والمسلمات وإخضاعها للنقد والمراجعة، كما وثقافةٍ موسوعيةٍ ندر أن يمتلكها شخص ما بمفرده.

يقول أكرم في مقال له نشر عام 2011 على موقع معابر بعنوان عودة إلى الذات: ... **لأني أبحث عن نفسي، فإني سأحاول من منظوري، وانطلاقاً من تجربتي الحياتية المتواضعة، ومن علاقتي مع ذاتي ومع العالم المحيط، أن أتلمس، من منظور علائقي، ما انطبع في عقلي وقلبي وما فهمتُهُ من تلك الذات الداخلية. وقد تطلب**

* كلمة نشوان الأتاسي في تأبين أكرم أنطاكي. دمشق، كنيسة الصليب، 21-4-2013.

الأمر مني حياةً بكاملها لأتوصَّل إلى بعضِ فهمٍ شبهِ متماسك بهذا الخصوص.

لم يستكن عقله يوماً لواقع ولا لحقائق جاهزة ومعلبة، بل تميز دائماً بقدرته على تجاوز ذاته والصعود إلى آفاق معرفية وإنسانية أرحب، متمثلاً قول غاندي: **دائماً طريق الصواب هو الأصعب.**

ومن أجل هذا، فقد كانت حياته سلسلة معارك فكرية خاضها مع الآخرين، ومع ذاته أولاً، واضعاً نصب عينيه شعار ابنته الفكرية (معابر): **لا عقيدة أسمى من الحقيقة.**

لم تكن معابر بالنسبة لأكرم موقعاً إلكترونياً وحسب، فقد وضع على صفحاتها خلاصة فكره وآرائه وتجربته الغنية في الحياة، وكان دائماً يسابق الزمن لوضع عصارة فكره وخبرته وتجاربه بتصرف الجميع، كما جعل من معابر واحة فكرية وإنسانية لمن يكتب، ولمن يقرأ على حد سواء.

اختار اللاعنف طريقاً ومنهجاً ضمَّنه عصارة خبرته وأسَّس قاعدة لهذا المنهج، بحيث يمكن اعتباره بحق رائد اللاعنف في منطقتنا وفي سوريا، التي هي أحوجُ ما تكون إليه الآن.

ولم يكن أسلوب حياته الشخصية مختلفاً، فلقد عاش حياته زاهداً في كل ما كان الآخرون يلهثون خلفه.

لقد كانت سيرته الشخصية مثالاً لما يمكن أن يكون عليه الإنسان من تناغم وانسجام مع الذات، وكان في نقاء سريرته أشبه بطفل لم تلوثه مثالب الحياة.

على امتداد سنين معرفتنا وصداقتنا، لم ألحظ يوماً أن له، ككلِ إنسان، حلماً خاصاً به، فلقد كانت أحلامه أكبر وأرحب. كان يحلم بعالمٍ آخر غير الذي نعيشه، بعالمٍ أكثرَ إنسانيةً وأقل عنفاً وألماً، وقد كرَّس لهذا الحلم حياته وقلمه الذي لم يكن يرى سواه أسلوباً وسلاحاً في زمنٍ ساد فيه الاحتكام إلى كل الأسلحةِ ما عدا القلم، فلم يحتمل قلبه الكبير هذه المفارقة المفجعة.

صديقي... يا طائر الليل حاملاً مصباح ديوجين... من هو أحق منا بالحزنُ على الآخر؟

أتراك في عليائك تحزَنُ علينا كما نحزَنُ عليك هنا... ونفتقدك؟

نشوان الأتاسي

مراجعة أولية هي بمثابة مقدمة

أعد الكرَّة مرة أخرى ولكن، بنزاهة لامتناهية...

(رومان رولان)

1

كالصفعة الأليمة التي تعيد المرء إلى واقعه الحزين. وجدتني، بعيد اللقاء الأخير لمعابر (2010) وما تلاه من مناقشات مع بعض الأصدقاء ، أشعر بمقدار هشاشتنا كبشر من المفترض أننا أكثر وعياً من سوانا من جهة، وأتأكد من مقدار سطحية علاقاتنا الإنسانية من جهة أخرى. وهو واقع حال دفعني لأن أراجع نفسي... مرَّةً أخرى.

وأعود إلى ذاتي متسائلاً، منذ البداية، إلى أيَّة ذاتٍ أعود؟ أراجع حياتي التي أحاول استرجاعها أمامي كشريط يبدو وكأنه غير واقعي. أراجع كلَّ علاقاتي بدءاً من تلك التي مع أقرب الأقربين وصولاً إلى من تقاطع طريقي معه بمحض الصدفة ذات مرة. وأراجع أفكاري متفكراً في كلِّ ما فكرت به وما قرأته، وخاصة في تلك الكتابات التي تأثرت بها وطبعت مسار حياتي. أتفكر فيما عشته، وفي نفسي في نهاية المطاف.

قلت أتفكر، وأنا أعني ما أقول. لكني أعترف بأن تفكيري، وحين أعود بصدق إلى ذاتي، لن يكون فقط بعين عقل لا مجال لإنكاره، وإنما دائماً وأبداً إلى جانبه ستتواجد عين ذلك القلب الذي ياما عذَّبني، إن لم أقل عين تلك العاطفة المتدفقة من الأعماق والتي غالباً ما كانت تصحح لي المسار و/أو... تورِّطني...

وأتساءل لماذا أعود لأراجع نفسي اليوم تحديداً وبشكل أعمق من أي يوم مضى؟ ولا أجد إلا جواباً واحداً يقول بأني أشعر بأمسِّ الحاجة إلى ذلك. ولكن، إلى جانب هذا الجواب البديهي، وما قد يفسِّر تلك الحاجة الماسة، أعترف بأن هناك أيضاً شعوراً ومنطقاً آخرَ كان يتملكني في الفترة الأخيرة – وإن كان لا يسرني –؛ شعوراً يبدو وكأنه يعكس نوعاً من الملل من كل ما يحيط بي، وممن حولي، وخاصةً... من نفسي. وهو شعور يجعلني أشعر باليأس أحياناً ويدفعني حتى إلى التفكير بوضع حدٍّ لحياتي أحياناً أخرى. ولكن...

الحياة تثبت لي كلَّ يوم وكلَّ لحظة أن ليس بوسعي الاستغناء عمن حولي من أصدقاء أحبهم وأجدني اليوم بعيداً عنهم، لأنه ورغم كل ادعاءتنا بالتوافق على قيم مشتركة يبدو أننا جميعاً قد فهمنا الحياة بشكل مجتزأ.

وأتساءل عن نفسي، ومن خلالها أتساءل عن الآخرين. أتساءل عما يربطني بهم من جهة وعما يفرِّقني عنهم من جهة أخرى. واكتشف كلَّ يوم، لا بل كلَّ ساعة إن لم أقل كل دقيقة وكل ثانية – وأعتذر هنا من بعض أصدقائي الذين يحبون الكلمات الطنانة –، أني لست فقط في هذا العالم وإنما أنا منه تحديداً وحصراً وحتى النهاية.

2

من أنا؟

أنا مجرد إنسان من هذا العالم. وكجميعكم، أنا ابن أب وأم حددا منذ البداية مسار حياتي فتركا لدي ذكريات جميلة وتعيسة معاً. وأنا ابن عائلة معينة، معروفة لدى البعض وغير معروفة لدى البعض الآخر؛ لا يهم، ولكنها تبقى عائلة تركت في شخصيتي بعض الأثر. وأنا ابن وسط معين ودين معين ولدت وتربيت في كنفهما من خلال العائلة والمدرسة والمجتمع. وسط ودين رفضتهما في مرحلة معينة من حياتي قبل أن أعقل فأعود، ولو متأخراً، لأحاول تفهمهما من جديد كما أحاول اليوم أن أتفهم كل ما يواجهني في هذه الحياة. وأنا إنسان عاش مساراً طبيعياً، وإن لم يكن سهلاً، فدرس وتفوق وتخرج من الجامعة مهندساً. إنسان عاش حياته العملية بلا انقطاع منذ اليوم

الأول لتخرجه وحتى إلى ما بعد تقاعده. وقد كان لهذه الحياة العملية التي تعرفت خلالها على بلادي وعلى بلدان أخرى وعلى الكثير من الناس، وأقمت خلالها الكثير من العلاقات، تأثير كبير عليَّ، الأمر الذي ترك أعمق الأثر في نفسي. وأيضاً، كما سبق وأشرت...

لقد قرأت الكثير خلال حياتي، قرأت الغثَّ الذي سرعان ما رفضته، كما قرأت الثمين الذي ترك في نفسي أعمق الأثر. وتأثرت بما كان منتشراً حولي من أفكار وعقائد، فتبنيت بعضها وعشته بعمق كما اقتنعت به. ثم حين لم تعد هذه الأفكار ولا تلك العقائد مقنعة تماماً بالنسبة إلي تركتها بهدوء، ولكن بلا خوف ولا ضغينة ولا ندم، لأني تعلَّمت منها أيضاً في نهاية المطاف، ما يعني أنها تركت أيضاً أثرها العميق في نفسي. كما عشت قصص حبٍّ، وتزوجت، وأصبح عندي أبناء وبنات حاولت أن أقدِّم لهم أفضل ما لدي، ففشلت أحياناً، ونجحت بشكل عام في أن أساعدهم على أن يكونوا ما هم عليه الآن؛ أناساً صالحين كبروا وتزوجوا وأصبح لهم بدورهم أبناء وبنات هم الآن متعة ناظري. لأن هذه هي الحياة، ولأني، كما علَّمتهم، تعلَّمت أيضاً منهم الكثير، فتركوا أيضاً أعظم الأثر في نفسي.

وأجدني اليوم، وأنا على على مشارف نهاية طريقي، أعود لأختلي بنفسي. ومن دون انقطاع عن الواقع، من دون انقطاع عن الحياة بحلوها ومرِّها، ومن دون انقطاع عمن أحب وعمن لا أحب، أعاود الكرَّة والتساؤل من جديد: من أنا في نهاية المطاف؟

3

اعرف نفسك...

لأن هذه هي الوصفة السحرية التي يردِّدها اليوم الكثير من (العارفين)، الوصفة التي سأتمكن عن طريقها، إن شاءت الآلهة، من حلِّ كلِّ المشاكل التي تواجهني. وبالتالي، ربما، سأتمكن أيضاً عن طريقها من حلِّ كلِّ مشاكل هذا العالم، والتي هي أيضاً مشاكلي...

وأتساءل عن أية نفسٍ يتحدث أولئك العارفون يا ترى؟

وأنا لا أتحدث الآن وبشكلٍ مباشر عن نفوسكم أيها الأصدقاء، كما أني لا ولن أنتقدكم من أجل الترويج لسوق معتقداتي وأفكاري، كما يفعل البعض في معظم الأحوال، فهذا ليس من حقي. وإنما سأغوص قليلاً في نفسي التي أعود إليها الآن. فأنا هنا في مجالي، وأنا ههنا

أمارس حقي، لأني ... **هنا في منزلـــ(ي) مستلقياً على كرسيـــ(ي) الهزاز**[1].

وأغمض عينيَّ وأتأمل بصمت فيما كنت أقرأ قبل قليل – ذلك الكتيب صغير الذي كنت قد ترجمته[2] منذ فترة – فقد تفكَّرت قبل المباشرة بكتابة هذه السطور في أنه قد يساعدني على ولوج ذلك الجحيم الداخلي، الذي هو نفسي.

لكنها جملٌ وعباراتٌ قليلة منه بقيت عالقةً في نفسي، وهذه تقول أن: **عندما ترتعب نفسك من رؤية الدموع الحارة للألم، وتلتجئ، وقد أصمَّتتها صيحات الأسى، كسلحفاة خجولة إلى قوقعة الأنانية؛ فاعلم – أيها المريد – أنَّ نفسك ليست جديرة بإلهها الصامت.**

وأتفكر بأني لم أخف يوماً من التمعن في الدموع الحارة للألم الإنساني، وأن نفسي لم تلتجئ يوماً إلى قوقعتها الأنانية هرباً من ذلك الجحيم، إنما، وبكلِّ تواضع، كانت هذه الدموع هي التي حركتني طيلة حياتي، فأشعر ببعض الرجاء، خاصةً وأني مقتنع تماماً بأن **هذه الأرض... (ما) هي إلا المدخل الوحيد الموصل إلى الغسق الذي**

---

[1] مارتن بوبر، *أنا وأنت*، ترجمة أكرم أنطاكي، معابر للنشر، دمشق، 2010.

[2] هيلينا ب. بلافاتسكي، *صوت الصمت*، ترجمة أكرم أنطاكي، 2011.

يسبق وادي النور الحقيقي، (ذلك) النور الذي لا يمكن لأحد ولوجه، والمشتعل دونما فتيل أو وقود.

وأنا الذي من هذه الأرض، تحديداً وحصراً، لا أطمح في أن أصبح إلهاً، خاصةً وأنه ليس بوسعي – ولا أرغب حتى في – التخلي عن عالم الحواس الذي لا أراه منفصلاً عن عالم النفس وعن عالم العلاقات المتبادلة بين البشر.

لذلك تراني أحاول، نعم **(فقط)** أحاول، أن أتفهم وأن أتلمَّس ما يتجاوزني ويدعونني لأن أدع نفسي **تصغي إلى كلِّ صرخة ألم، كزهرة اللوتس حين تعرِّي قلبها فيتشرَّب من شمس الصباح.**

ذلك الذي يناديني دائماً كي **لا (أ)دع الشمس الحارقة تجفف دمعة الألم قبل أن (أ)حاول مسحها عن العينين المفجوعتين.**

وتجدني...

في الوقت نفسه أبكي من الألم، لأني حين استنجدت بأصدقائي في لحظة ألمٍ لم أجد أحداً إلى جانبي... لأنهم ربما لم يعودوا بحاجة إلى صداقتي. أو ربما لأنهم حققوا تكاملهم واكتفاءهم الذاتي على هذه الفانية. لست أدري. وأتفكر بضرورة تجاوز مفاهيمي *المثالية* وبضرورة أن ألعب اللعبة الإنسانية كما يلعبها الجميع.

وأجدني عاجزاً عن فعل ذلك. ولكن...

ربما لأني ما زلت أبحث عن نفسي، أجدني بحاجة دائمة لمثل هذه المراجعة الدائمة – رغم قسوتها. وهذه المراجعة مليئة بالذكريات ومليئة بالمشاعر. ما يعني بهذا الخصوص، أني لا أستطيع الاستجابة إلى تلك الدعوة التي تطلب قتل ما في النفس من *ذكريات ومشاعر ماضية*.

وتراني أسترجع ذكرياتي التي هي أكثر من مجرَّد صور في ذهني. وبالمناسبة...

أسجِّل هنا أني لم اقتنع حتى الآن بتلك الحجة الدامغة التي يسوقها البعض من دون تمعن كافٍ، والقائلة بأن *لا وجود إلا للحظة الحاضرة*؛ لأني أعتبر مثل تلك الأقاويل، وكما تُطرح، مجرَّد تلاعب في الألفاظ، فأنا كإنسان حسيٍّ لا أستطيع إيقاف أو تجزئة الزمن الذي، كما أفهمه، هو حركة دائمة لا تنتهي، حركة تبدأ من ماضٍ لا يمكن نكرانه لتصل إلى حاضر لايمكن تحديده وسرعان ما يتلاشى لتوه متجهاً نحو مستقبل يحمله في أحضانه. ولكن، يبقى أن هذا الموضوع معقد جداً ويحتاج إلى المزيد من التمعن والتفكير، فأنا أقرُّ بأن *الآن* التي هي الحاضر لا تحدد طبعاً بـــ ... **تلك النقطة التي**

تحدِّد الانتقال الذهني من زمن إلى آخر، بمعنى ختام للزمن *المنتهي*. أو مجرَّد شكل نهاية تعقد وتثبَّت. إنما (المعنى هو) الحاضر الحقيقي الحالي والمليء، (ذلك) الموجود حتى الآن كحاضرية فعلية، كلقاء، وكعلاقة. فالحاضر يظهر فقط من خلال واقع أن الأنت قد أصبحت حاضرة[3].

يبقى أن هذا موضوع آخر سأحاول مناقشته لاحقاً.

ويبقى أني مقتنع تماماً بضرورة معرفة نفسي، تلك النفس التي أعتقد أنها ذاتي الحقيقية التي تستوعب شخصيتي على علاَّتها، تلك الذات التي يقولون إنها من الأعماق والتي تتصل بالكون الذي هو أيضاً بعضٌ مني كما أنا بعض منه.

وأتفكر بأن هذه كانت، وما زالت، قناعتي النابعة من أعماق نفسي وذاتي التي أعاود محاولة التعرف إليها والتواصل معها. مع ملاحظة تقول: *أن عليَّ أن أعرف حجمي أولاً وأن أكون متيقظاً دوماً ثانياً وأخيراً.*

---

[3] مارتن بوبر، *أنا وأنت*، مرجع سابق.

4

في الأبيض وفي الأسود وما بينهما...

وأنا أتعرف كلَّ يوم وفي كلِّ لحظة على نفسي من خلال التأمل الصامت... وعن طريق العلاقة. لأني مقتنع تماماً بما نبهني إليه آخر المعلِّمين الذين صادفتهم[4]، ويقول بأن التأمل والعلاقة لا يتعارضان وإنما يتكاملان.

فأنا أعيش حياتي في قلب العلاقة التي قد تكون خاصة و/أو عامة – ولكنها في الحالتين محددة وحصرية. فأفعل، وأتأثر، وأؤثر، وأخطىء، وأصيب، و... أراجع نفسي في كلِّ مرة حين أعود لأختلي بها متسائلاً.

فأنا قمت بعمل جيد هنا، عمل سرعان ما أتلمَّس أثره سعادةً ورضىً في قلبي، كما أتلمَّس ذلك على وجوه وفي أعين من قمت بالعمل معهم و/أو من أجلهم، فأشعر بالسعادة والرضى لأني أنجزت عملاً جيداً. تماماً كما، وبكلِّ بساطة، شعر الخالق بالسعادة والرضى في ذلك اليوم السابع وبعد أن أتمَّ فعل الخلقية. و...

---

[4] مارتن بوبر، *أنا وأنت*، مرجع سابق.

لكني غضبت هنا و/أو أسأت هناك لأني بشر. لأنه فعلٌ سرعان ما أشعر بسببه بحزنٍ عميقٍ في نفسي، كما عند الآخرين الذين لحقت بهم الإساءة. وأعود إلى نفسي وإلى عقلي وقلبي لأتلمَّس جذور الخطأ فيما فعلت فأدى إلى مثل هذه الإساءة وولَّد مثل هذا الغضب.

وأتساءل عن مسببات تلك الإساءة وعن جذور ذلك الغضب الذي قد نجده في داخلنا من جهة، فهذا واقع لا يمكن إنكاره. ولكننا قد نجده أيضاً في خارجنا، وفي العالم الذي نتفاعل معه ونتعامل معه. وهذا العالم ليس وهماً يا صديقي.

لأننا نعيش من جهة أخرى في عالم ما زال عنيفاً وتسود فيه الإساءة كما يسود فيه الغضب. وهذه الحقيقة هي الوجه الآخر لمستوى واقع آخر لا يمكننا التستر عليه ولا إنكاره. فنحن نعيش في علاقة مستمرة ودائمة مع ذلك العالم المحيط بنا كما نعيش مع أنفسنا.

إلهي، كم سيء هنا التلاعب بالعواطف وبالفكر وبالكلمات! إلهي، كم يساء في هذا المجال إلى العقول وإلى القلوب حين يُحصر الخطأ، على سبيل المثال، بجانب ويتم التغافل عن الجوانب الأخرى! إلهي، كم سيء أن تُحصر الإساءة في أعماق الذات الإنسانية وأن يتم التغافل عن مسبباتها في العالم المحيط!

فهذا الإنسان غاضب، مثلاً، لأنه لا يستطيع تأمين ما يكفي من الطعام لعائلته، وهو لا يستطيع ذلك لمسببات عامة تتعلق بالمجتمع وبالسياسة وبمجمل ما يحيط به من ظروف. فكيف، بربكم، كيف بوسعنا أن ننصحه بأن يبحث عن جذور ألمه وغضبه في نفسه قبل أن نساعده، كبشر يفترض أن يشعروا بما يشعر به، على حلِّ تلك المشكلة الأساسية التي هي إطعام صغاره ومسح دموع الألم عن وجوههم؟!

إن الحديث عن العودة إلى الذات هنا تحديداً، وفي مثل هذه الأحوال، وما أكثرها، سرعان ما يتحول إلى مجرد كلام فارغ وبلا معنى. لأننا في أحسن الظروف لا نرى أن ما نتحدث عنه ونطلبه من أنفسنا، ولأنفسنا، إنما يعكس مستوى مختلفاً من الواقع ومن الحقيقة. ثم...

لنفترض أن الإساءة الناجمة عن الغضب وقعت بين شخصين من نفس المستوى وعلى صعيد العلاقة الحصرية المباشرة بينهما، هنا أعترفُ بأن مراجعة الذات تصبح ضروريةً وتصبح واجباً لطرفي العلاقة كلٌّ على انفراد ومعاً من خلالها. لأنه إن لم يحصل هذا فهناك خلل يتوجب علينا مواجهته؛ لأنه خلل في فهم الذات وفي فهم العلاقة،

أي خلل مفترض في عالم الـ*أنت* التي تحولت على أرض الواقع إلى هو. ولكن...

يبقى التساؤل يطرح نفسه وبقسوة ويقول: **هل إنَّ *معرفة الذات*** هي الطريق الوحيد (وإن هي بلا شك ذلك الذي لا غنى عنه) لحلِّ مشاكلنا الإنسانية؟ هل هي *الوصفة* السرِّية السحرية النابعة من الأعماق؟

حول هذا الموضوع، وإن لم أكن مخطئ، يقول مارتن بوبر: **إن إضافة *ظاهر* التجارب إلى *باطنها* لا يغير من الواقع شيئاً. فنحن بهذا نتابع فقط التقسيمات النابعة من رغبة الجنس البشري في اكتشاف سرِّ الموت. وأشياء الظاهر وأشياء الباطن ما هي إلا أشياء وأشياء.**

وأنا بهذا الخصوص أتفق تماماً مع مارتن بوبر. لأننا نواجه هنا، في الحقيقة...

5
مشكلة من نوع آخر...

مشكلة قد تبدو بسيطة، لكنها في الحقيقة معقدة جداً. وأنا لا أحبُّ تعقيد الأمور.

لكن، الأمور في هذه الحياة معقدة. كما أن تجربتي في هذه الحياة قد علَّمتني أن أكون متحفظاً حين أواجه تبسيطاً في طرح أمور ومشاكل تتعلق بهذه الحياة المعقدة.

فأنا أريد معرفة نفسي، وأنا أخاف من أشياء كثيرة وخاصةً أخاف من الموت ككل البشر على مرِّ التاريخ الإنساني. ولكن...

الموت، إن نظرنا إليه بحدِّ ذاته، يبقى حقيقةً وواقعاً في عالمنا، حقيقة وواقعاً واجهه الإنسان منذ البداية وسيبقى يواجهه حتى النهاية. ما يعني أن الموت والخوف منه ما هو إلا واقع حال قائم لا ينتمي إلى *عالم الأفكار المجردة* – رغم أن عالم الأفكار المجردة يتقاطع غالباً مع عالم الواقع الإنساني.

وأنا أخاف من عالم *الأفكار المجردة*، وبالتحديد منها أخاف من عالم *الأفكار المبسَّطة*. وأخاف تحديداً من أولئك الذين يتناولون الأشياء ببساطة، فيتلاعبون بالأفكار وبالكلمات، وعن وعي أو بلا وعي يتلاعبون بعقول وبقلوب البشر.

وخاصةً، نعم خاصةً، أخاف من (وعلى) ذلك الإنسان الراضي عن نفسه وعن تجربته والذي **شيَّد أو عبَّر عن نفسه بواسطة بنيان من الأفكار التي يجد فيها الملاذ فأراحته من تبعات العدم.**

نعم أخاف من ذلك (المعلم) الذي يدعونا إلى رفض سواه من المعلمين. أخاف من ذلك الذي يتطاول، وبكل صفاقة، على كل القيم والمعتقدات فيوجهنا نحو طريق العدم من خلال توجيهنا إلى رفض كلِّ التوجهات.

و*معرفة النفس* كالحديث عن التحقق الذاتي الكامل في عالم سقيم، كالحديث عن مشاكل هذه الحياة التي لا تحلُّ إلا بالعودة إلى الذات، أضحت اليوم بعضاً من هذه الأفكار المجردة والبسيطة. وأنا أخاف في مثل هذه الأحوال تحديداً من التجريد كما أخاف من التبسيط.

وأكثر من أي شيء آخر، ولأني خُدعت كثيراً في حياتي، أخاف من الخداع وأخاف من المخادعين.

لذلك تجدني الآن أتعامل بتأنٍ مع كلِّ ما أقرأه وأسمعه وأراه حول هذه المواضيع، وخاصةً حين يتعلق الأمر بالتجربة الإنسانية الحيَّة على مرِّ العصور، تلك التجربة التي خلقت منظورها المتنوع للعرفان وللألوهة وللحياة وللموت ولطبيعة العلاقات في عالم البشر.

و*معرفة الذات*، التي يتحدثون عنها اليوم بهذه البساطة، قد تحولت مع الأسف إلى مجرَّد أداة – إن لم نقل إلى مجرَّد وصفة أو تجربة حسية – يدَّعون بأنها الحلّ السحري الذي بوسعه أن يغير مسار

الإنسان وأن يحلَّ مشاكله، الأمر الذي يجعلنا نتعامل معها بخفَّة، كـــ شيء من الأشياء، إن لم نقل كتجربة من تجارب هذه الحياة.

وأنا الذي أريد معرفة نفسي أتساءل عما أعرفه عن ذوات أولئك (العارفين).

لكني رغم كل شيء، أستمر في الغوص في الأعماق لأني...

أريد معرفة نفسي.

في الحب وفي المحبة

الحب موجود... وأنا أؤمن به...

(آراغون)

1

أسترجع بيت شعر جميل لشاعر فرنسي من القرن السادس عشر يقول:

الحياة جميلة، أنا أقتل نفسي كي أفهمكم

هذا ما نطقت به الوردة، قبل أن تموت[5].

ولأن الحياة جميلة فعلاً، رغم قسوتها أحياناً، ترانا نتمسَّك بها بكلِّ ما أوتينا به من قوة، محاولين قدر المستطاع إبعاد ساعة نهايتها. لأننا، ورغم كلِّ ما نحاول أن نقنع أنفسنا به من أوهام تعدنا بحياة أزلية، أو بإمكانية العودة إلى هذه الحياة مرة أخرى، تجدنا مقتنعين في أعماقنا بتلك الحقيقة القاسية التي تقول أن لا حياة سوى تلك المحدودة التي نعيشها على هذه الفانية.

---

[5] بيير رونسار:

La vie est belle, je me tue a vous le dire…. Dit la fleur, et elle meurt..

لهذا تجدنا، عن وعي و/أو بلا وعي، نحاول أن نغرف منها قدر المستطاع لأنفسنا، ولمن نحب.

ولكن، مهلاً يا صديقي، مهلاً...

وقبل أن تسهب في الحديث عن مشاكلك وعن مشاكل هذه الحياة، لما لا تتوقف قليلاً وتتأمل في آخر كلمة نطقت بها؟ ولم لا تتساءل عن ماهية الحبِّ الذي ذكرته، والذي قد يكون فعلاً ذلك الذي يعطي الحياة معناها الحقيقي؟ لم لا فعلاً؟! لم لا بكلِّ تأكيد؟! لم لا نتفكر قليلاً معاً في تلك العلاقة التي هي أجمل ما يربط بين البشر، والتي هي ربما أسمى ما في الوجود؟ وأجدني حالماً، سعيداً وحزيناً معاً، أستعيد بعضاً من أجمل أبيات الشعر الغزلي تقول:

مولاي وروحي في يده...

***قد ضيَّعها... سلمت يده*[6].**

وأتفكَّر بحسرة... ربما لأني قد تجاوزت الخامسة والستين من جهة، و/أو ربما لأن قطار العمر قد فاتني من جهة أخرى، بجمالية تلك العلاقة التي غالباً ما تكون، من أحد جوانبها الأساسية، حسية جداً

---

[6] من قصيدة *مضناك جفاه مرقده* لشاعر مجهول. غناء محمد عبد الوهاب.

– وهو جانب قد يكون، من منظور معين، أحد أمتع أوجه الحبِّ الذي يتغنى به الجميع. خاصةً وأنه **عندما يكون الإنسان مجتمعاً بزوجته [بمن يحب]، يعصف شوق التلال الأبدية حولهما**[7].

وأتساءل: ما هو الحبُّ يا ترى؟

2

وأتفكر قبل كلِّ شيء بأن الحبَّ هو علاقة، إن لم نقل إنه، وبالنسبة لنا كبشر، التعبير الأكثر صدقاً عن العلاقة بين الـ*أنا* الخاصة بنا والـ*أنت* الخاصة بمن نحبُّ. ولكن قبل الغوص في مضمون هذه العلاقة، أرى من الضروري توضيح بعض الأمور.

وأبدأ ببعض مما قاله حول هذا الموضوع المفكر الهندي الكبير جدّو كريشنامورتي الذي، وإن لم يعرف كيف يوضِّح لمحاوريه ماهية الحبِّ، حاول، بكل بساطة ونزاهة وقسوة، أن يبين، ومن منظوره العقلي الذي غالباً ما يتخذ شكلاً سلبياً، ما لا يمكن للحبِّ أن يكون...

فالحبُّ، من منظور كريشنامورتي، لا يمكن، قبل كلِّ شيء، أن يكون تملُّكياً **لأننا حين ندَّعي بأننا نحبُّ شخصاً ما، فما الذي نعنيه**

[7] مارتن بوبر، *أنا وأنت*، الجزء الثالث، ترجمة أكرم أنطاكي، معابر للنشر، دمشق، 2010.

بذلك؟ نحن نعني أننا نملك هذا الشخص. ومن التملك تنبع الغيرة، لأني إن فقدته أو فقدتها، فما الذي سيحصل؟ سأشعر بالفراغ، وبالضياع، لذلك تراني أشرِّع التملُّك؛ فأتمسَّك به أو بها. ومن التمسُّك، والتملُّك، تنبع الغيرة، لأن هذا يولِّد خوفاً وكلَّ تلك الصراعات التي لا تنتهي والنابعة من التملُّك. فحتماً لا يمكن اعتبار مثل هكذا تملُّك حبّاً. أليس كذلك؟[8]

وهذا صحيح جدّاً. لكن ما كان بحاجة إلى المزيد من التوضيح، من قبله ربما، كان ضرورة التمييز بين مفهوم التملُّك وبين حتمية أن تكون **كل علاقة حقيقية، مع أيِّ كائن أو مع إيَّة حياة في العالم، حصرية. حيث تتحرر الـــأنت الخاصة بها، فتتجاوزها، وحيدةً، وتواجهك. (لأنها) تملأ السموات. لكن هذا لا يعني أن لا وجود لشيء سواها؛ إنما (يعني) أن كل الآخرين يحيون في نورها. وطالما استمرت العلاقة، فإن نطاقها الكوني لا ينتهك. لكن، بمجرد أن تتحول الـــأنت إلى هو، فإن النطاق الكوني للعلاقة يصبح مهيناً للعالم، كما تصبح خصوصيتها إقصاءً من الكون**[9].

---

[8] جدو كريشنامورتي، *الحرية الأولى والأخيرة*، في الحب.

[9] مارتن بوبر، *أنا وأنت*، الجزء الثالث، مرجع سابق.

ما يعني، ومن منظور فهمي المتواضع، أنه إن كان يفترض بالحبِّ أن لا يكون تملكياً، وهذا أساسي؛ فإنه أيضاً، وفي الوقت نفسه، لا بدَّ من أن يكون حصرياً، وهذا أساسي أيضاً.

وأيضاً، لقد كان كريشنامورتي على حق إلى حدٍّ كبير حين افترض بأن **الحبَّ لا يعني الشعور. فإن حملت مشاعراً، أو كنت عاطفياً، فإن هذا لا يعني أنك تحب، لأن المشاعر والعواطف هي مجرد أحاسيس. والشخص المتدين الذي يسعى إلى يسوع أو إلى كريشنا من خلال الغورو الخاص به (بمعنى معلمه) أو أي شخص آخر، هو مجرد شخص عاطفي، وانفعالي، وغارق في الإحساس الذي هو صنيعة الفكر، والفكر ليس حبّاً. لأن الفكر هو من نتائج الإحساس، ما يعني بأن الشخص العاطفي، والانفعالي، ليس بوسعه على الأغلب أن يعرف معنى الحب**[10].

ولكني، ورغم موافقتي على أن الحبَّ لا يعني الشعور، وعلى أن الفكر لا يعني الحبَّ، أجدني، من حيث النتيجة، متحفظاً على مثل هكذا كلام. وتحفُّظي ههنا له علاقة بقطعية الحكم الذي توصل إليه

[10] جدو كريشنامورتي، *الحرية الأولى والأخيرة*، في الحب.

صاحبنا، وبقسوته. لأنه حتى الألوهة، التي تستوعبنا جميعاً، ليس بوسعها أن تنفي إمكانية الحب لأي شخص انطلاقاً من واقعه ومن مستوى إدراكه. ما يعني أنه بهذا الحكم، المتسرِّع والقاسي، أخطأ كريشنامورتي فوقع من خلال مقارباته الذهنية في خطيئة التعالي. والمحب الحقيقي – أقصد من يعرف ماهية الحبِّ كعلاقة حصرية تعاش – لا يفترض أن يتعالى. لكن هذا التعالي أكده كريشنامورتي، مرةً أخرى، مع الأسف، في الفقرة التالية من الحوار نفسه حين قال بكل ثقة، ومن نفس المنطلق القطعي والقاسي: **إنَّ الشخص العاطفي، والذي يسكب الدموع من أجل دينه، ليس بوسعه أن يحبَّ بالتأكيد**[11].

لأنَّ ما كان كريشنامورني بحاجة لأن يوضحه في هذا المجال، بكل تواضع، وبمزيد من الدقة، هو أنَّ: **المشاعر تقيم في الإنسان؛ لكن الإنسان يُقيم في حبه. وهذا (الأمر) ليس مجازاً إنما (هو) حقيقة قائمة**[12].

لكن، ورغم كلِّ شيء، كان كريشنامورتي محقاً جداً في مقاربته. خاصةً حين أكد أنه **حيث لا يوجد الاحترام، لا يمكن للحبِّ أن يوجد؛**

---

[11] المرجع السابق.

[12] مارتن بوبر، *أنا وأنت*، الجزء الأول، مرجع سابق.

وحيث لا توجد الشفقة، والرحمة، والغفران، لا يمكن للحبِّ أن يوجد[13].

كما كان محقاً تماماً في النتيجة التي توصل إليها، في نهاية حواره، والتي تقول: **أنت تحبُّ حقاً حين لا تتملك، وحين لا تكون حسوداً، وحين تحترم الآخرين، وحين تكون رحيماً وعطوفاً، وحين تحترم زوجتك وأطفالك وجيرانك، وخدمك المساكين.**

لذلك **لا تقل: أنا أحبُّ العالم، لكنك حين تتعلم كيف تحب شخصاً واحداً فإنك ستعرف كيف تحب العالم. لأننا حين لا نعرف كيف نحب شخصاً واحداً يكون حبنا للإنسانية زائفاً**[14].

وفعلاً، كان كريشنامورتي محقاً بشكل عام في حواره وفي مقارباته التي حاول فيها أن يوضِّح مفهومه للحب وللمحبة. وفهمه الجميل هذا يتقاطع إلى حدٍّ بعيد مع ما جاء على لسان بولس الرسول في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس حين قال بأن: **المحبة تتأنى وترفق، المحبة لا تحسد. المحبة لا تتفاخر، ولا تنتفخ، ولا تقبح، ولا تطلب شيئاً ما لنفسها، ولا تحتد، ولا تظن السوء، ولا تفرح**

---

[13] جدو كريشنامورتي، *الحرية الأولى والأخيرة*، في الحب.

[14] المرجع السابق.

بالإثم بل تفرح بالحق، وتحتمل كل شيء، و تصدِّق كل شيء، وترجو كل شيء، وتصبر على كل شيء. المحبة لا تسقط أبداً. وأما النبوأت فستبطل والألسنة فستنتهي والعلم فسيبطل[15].

وأتفكَّر بأن كلَّ هذه المبادىء صحيحة جداً. لكن...

يبقى أنه لم يكن بوسع بولس الرسول قبل ما يقارب الألفي عام، كما لم يكن بوسع كريشنامورتي في الأمس القريب، كما لن يكون بوسع أحد في المستقبل، أن يقدِّم تعريفاً وافياً للحبِّ؛ وذلك ربما لسبب بسيط هو...

أن الحبَّ لا يعرَّف...

لأن الحبَّ علاقة... ولأنه علاقة حصرية... ولأن العلاقة تعاش. ولأن... **من يتخذ موقفه في العلاقة يشارك في واقع، أي مع كائن لا يكون ملكاً له فقط ولا يكمن خارجه فقط. لأن كل واقع هو فعل أشارك فيه من دون أن أكون قادراً على تملُّكه لنفسي. فحيث لا توجد مشاركة لا يوجد واقع. وحيث يوجد تملُّك ذاتي لا يوجد واقع.**

---

[15] رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس، 13: 4 – 7.

وبمقدار ما يكون هناك اتصال مباشر بالـــأنت، بمقدار ما تكون المشاركة أكثر كمالاً[16].

3

ولأن الحبَّ هكذا، أعتقد أنه من غير الممكن تناوله بمنطق العقل والفكر والتحليل والعلم. لذلك تراه وجد في الشعر الذي يصف أحواله و/أو في القصة التي تتحدث عن أحوال المحبين، أفضل وسيلة للتعبير عن نفسه. وهو بهذا يشبه العرفان (أو الغنوص) الذي وجد في الأسطورة أفضل أسلوب للتعبير عن نفسه بلغة البشر.

من هذا المنظور، يمكننا أن نعتبر نشيد الأنشاد جزءاً لا يتجزأ من الكتاب المقدَّس، إن لم نقل إنه الفصل الأكثر قداسةً في هذا الكتاب. ومن هذا المنظور ترانا ما زلنا ننفعل حين نستمع إلى ذلك النشيد يغني:

شماله تحت رأسي ويمينه تعانقني.

أحلِّفكنَّ يا بنات أورشليم ألا تيقظن ولا تنبهن الحبيب حتى يشاء[17]

---

[16] مارتن بوبر، *أنا وأنت*، الجزء الثاني، مرجع سابق.

[17] *نشيد الأنشاد*، 7 – 8.

فالحبُّ، وخاصةً منه ذلك الذي بين الرجل والمرأة، هو أولاً وقبل كل شيء علاقة حصرية... وعلاقة حسية. وأيضاً...

وتحديداً لأنه كذلك... فإنَّ الحبَّ المتبادل بين الرجل والمرأة، كما بين أي إنسان وأي إنسان آخر، هو مسؤولية. لا بل هو مسؤولية كبرى. فالحبُّ بين الرجل والمرأة لا يمكن أن يبقى مقتصراً على العلاقة الحسية بينهما، وهي في مرحلة معينة أساسية إن وجد، إنما غالباً ما يمكن أن تتمخض هذه العلاقة عن أسرة وعن أطفال. كما أنه، وفي كل الأحوال يفترض أن يتمخض عن صداقة.

وكل هذه الأمور، من خلال انعكاساتها الحياتية، هي علاقات حبٍّ و/أو علاقات محبة حصرية. أي علاقات تعاش بكلِّ جدِّية على أرض الواقع.

ويتوسع نطاق الحبِّ من علاقة حصرية بين الرجل والمرأة، ليصبح علاقةً حصرية أوسع من خلال الأسرة...

ويتوسع نطاق الحبُّ فيتجاوز نطاق الأسرة، ليصبح علاقات محبة حصرية وتعاش مع أسر أخرى، ومع أشخاص آخرين. وهكذا...

تستمر هذه العلاقة وتتوسع، إنْ كانت صادقةً وحصريةً فعلاً، بين الـ*أنا* الخاصة بكلٍّ منا والـ*أنت* الخاصة بمن نحب. كما أنها في

المقابل قد تنقطع وتنتهي إن فقدت صفتها العلائقية الحميمة فتحولت الـ*أنت* الخاصة بكل منّا إلى شيء، وتحولت العلاقة مع الآخر إلى علاقة مع مجرد آخر – مجرد *هو*.

لأننا إن لم نتوجه إلى من نحبُّ بالكلمة الأساسية *أنا–أنت*، فإننا لا نعرف معنى الحب.

وأعود لأتفكَّر بمزيد من التعمق في ذلك الاستنتاج الذي توصَّل إليه كريشنامورتي حين قال: **إننا حين لا نعرف كيف نحب شخصاً واحداً يكون حبنا للإنسانية زائفاً.**

واستنتج من هذا القول، الذي كان أجمل وأصدق ما عبَّر عنه في لقائه، أن من توصَّل إلى هكذا استنتاج لا بدَّ أنه، وفي يومٍ ما من حياته، قد عرف وعاش حبّاً حقيقياً من خلال علاقة حصرية مع إنسان محدد. ولكن، يا للإسف، أتراه خسر كلَّ شيء بعدئذٍ، حين تخلى عن حياته الطبيعية كإنسان وتحول إلى... مجرَّد مفكر كوني؟!

لأن هذه هي الحقيقة الحزينة. إن من ينقطع عن الحبِّ كعلاقة حصرية يخسر حبَّ الشخص المقابل، وتلك النشوة الرائعة التي كانت تجمعهما معاً، كما قد يخسر حتى الصداقة. وأيضاً، بسبب انعدام هذه العلاقة الحصرية مع شخص محدد ومع أسرة محددة ومع أناس

محددين يفرح لفرحهم ويبكي لألمهم، تراه يخسر كلَّ شيء ويصبح مجرد أسيرٍ لأوهامه ولعالم أفكاره. أسير ما كان (وما زال) يدعونا – محقاً – لرفضه. لكن...

4

هل يمكن للحبِّ على هذه الفانية أن يدوم؟

كجواب على هذا التساؤل ليس عندي ما أضيفه على القصيدة والأغنية الشهيرة لأراغون[18] التي تقول:

لا شيء مضمون أبداً للإنسان لا قوته،

لا ضعفه، ولا قلبه. وحين يظن نفسه

فاتحاً ذراعيه لك فإن خياله يكون خيال صليب.

وحين يظن نفسه ضامّاً فرحه إليه فإنه يسحنه سحناً.

طلاق غريب ومؤلم هي حياته.

لا يوجد حبٌّ هانئ!!!

لأن الحياة شبيهةٌ بأولئك الجنود العزَّل

الذين تمت تهيئتهم لمواجهة مصيرٍ آخر

---

[18] Il n’y a pas d’amour heureux.

لماذا يتوجب عليهم الاستيقاظ باكراً

حين نجدهم في النهاية منزوعي السلاح وتائهين

لذلك رددي هذه الكلمات يا حياتي واحبسي دمعك

لا يوجد حبٌّ هانىء!!!

يا حبِّي الجميل، يا حبِّي العزيز، يا جرحي العميق

أحملك في داخلي كعصفور جريح

وهؤلاء من دون أن يدروا يشاهدوننا نمرُّ

مرددين من ورائي تلك الكلمات التي غزلتها

من أجل عينيك الواسعتين، ثم ماتت لتوها

لا يوجد حبٌّ هانىء!!!

حتى نتعلَّم كيف نحيا يكون قد فات الأوان

فلتبكِ في الليل قلوبنا معاً

كم من الضنى ضروري من أجل أصغر غنوة

كم من الندم تستلزمه رعشة

كم من الشهيق يلزم للحن قيثار يغني

لا يوجد حبٌّ هانىء!!!

لا يوجد حبٌّ غير منذور للألم

لا يوجد حبٌّ لا يُبرِّح

لا يوجد حبٌّ لا يلوِّع

وليس يشذُّ عنك أنت

حبُّ الوطن

لا يوجد حبٌّ إلا ويقتات بالدموع

لا يوجد حبٌّ هانئ!!!

لأنه، وهذه من الحقائق المؤلمة في هذه الحياة، لا شيء مضمون فعلاً للإنسان... فإنه، لا يوجد حبٌّ هانىء، ولا يوجد حبٌّ لا ينتهي.

لأنه، وحتى في أحسن الأحوال، لا بدَّ لأي حبٍّ من أن ينتهي على الأقل بموت أحد الحبيبين قبل الآخر أو كما في الأساطير بموتهما معاً. لذلك، لا يوجد حبٌّ هانىء، ولا يوجد حبٌّ أزلي على هذه الفانية.

لأننا بشر، ولأن الحبَّ الأزلي والكلِّي والشامل هو من صفات الألوهة.

ولأن الأمر فعلاً كذلك، ولأن هذه هي الحياة، فإنه لا يوجد على هذه الأرض حبٌّ غير منذور للألم. ولكن...

هذا لا ينفي أنَّ الحبَّ يبقى أجمل وأقدس ما في الوجود...

5

لكني، وبهذه المناسبة التي تحدثت فيها عن الحبِّ وعن الألم، تراني ما زلت أشعر بضيق لأني لم أستطع التعبير تماماً عمَّا في نفسي وكنت أريد قوله. لهذا أجدني مضطراً لأن أغوص المزيد في أعماق الجحيم ولأن أتفكر المزيد.

لأني حين تحدثت عن الحبِّ فقد كنت **[أ] تحدث عنه وكأنه العلاقة الوحيدة بين البشر. ولكن إن صح الكلام، هل بوسعـ[ـي] الحديث عنه كمثال فقط، [أقصد] كمثال يواجه شيئاً اسمه الكراهية؟**[19]

والجواب على هذا التساؤل الكبير والمشروع يمكن تلمسه من خلال العودة إلى أنفسنا – و/أو ربما إن قرأنا مارتن بوبر الذي قال ذات يوم إنه: **طالما أن الحبَّ *أعمى* فإن هذا يعني أن ليس بوسعه**

---

[19] مارتن بوبر، *أنا وأنت*، الجزء الأول، مرجع سابق.

رؤية الكائن بكليته، بمعنى أنه غير متأثر بالكلمة الأساسية للعلاقة. (أمَّا) الكراهية (فــ)ــعمياء بطبيعتها[20].

وأتفكر أن الحبَّ، مع الأسف، غالباً ما يكون *أعمى*. لأننا في هذه الحياة، وحين نحبُّ شخصاً ما، فإنه غالباً ما لا يكون بوسعنا أن نراه بكليته، إنما نرى منه فقط ذلك الجانب الأجمل الذي يجعلنا نحبُّه، ولا نرى منه ذلك القميء الذي قد يجعلنا نكرهه. لهذا السبب، قد يصبح *الحبُّ الأعمى* وجهاً آخر للكراهية التي هي عمياء بطبيعتها. وهذا غالباً ما يحدث في هذه الحياة، وخاصةً عندما يكون و/أو يصبح الأشخاص والعلاقات منتمين بلا وعيٍ، وبهذا الشكل أو ذاك، إلى عالم الــهو.

وبالتالي **لأنه فقط بعض من الكائن يمكن كرهه. [ولأن] من يستطيع أن يرى الكائن بكليته، ويجد نفسه مضطراً لرفضه، لا يبقى منتمياً إلى مملكة الحقد؛ إنما يصبح في مملكة المحظور الإنساني الذي يمنعه من النطق بــأنت. فيجد نفسه غير قادر على النطق بالــأنت للإنسان الآخر الذي يواجهه. لأن هذه الكلمة تفترض دائماً**

---

[20] المرجع السابق، الفقرة نفسها.

تأكيداً للآخر الذي نتوجه إليه. ما يعني أنه يجد نفسه مضطراً لرفض ذلك الآخر أو لرفض نفسه[21].

وهذا ما يحصل فعلاً على أرض الواقع حين يواجَه الإنسان بالجانب المظلم لمن أحب، والذي كان خفياً عنه، فإنه قد يصبح مضطراً لرفضه إن لم يكن يريد أن يقابله بنفس الطريقة. أقصد عن طريق الجانب المظلم الخاص به.

ونلاحظ أن هذا الرفض لا ينتمي فعلاً إلى عالم الحقد أو الكراهية، إنما ينتمي إلى مملكة محظور إنساني قد يكون أخطر من الحقد وأسوء وأقسى من الكراهية، لأنه محظور يجعلنا غير قادرين على التوجه بالـ*أنت* إلى الشخص الذي يواجهنا. لأن هذه الكلمة المقدسة تفترض دائماً التأكيد على كلِّية هذا الشخص. لكن كما سبق وقلنا...

هناك جانب منه نرفضه، وبالتالي لم يعد بوسعنا التأكيد على تلك الكلِّية. وهذا الأمر قد يجعلنا، على أرض الواقع ولأننا بشر، مضطرين إلى رفض ذلك القميء الذي يواجهنا منه أو لرفض أنفسنا.

---

[21] المرجع السابق، الفقرة نفسها.

و... **ترا[نا] أمام هذا الحاجز [نــ]قرر الدخول في علاقة مع نسبيته. ومترافقاً مع هذا الواقع يقام الجدار**[22].

وهذا الجدار الذي لا يمكن، حين نعيه بعمق، أن ينتمي إلى عالم الكراهية؛ هذا الجدار الذي قد يكون، من منظور العلاقة بين الــ*أنا* وبين من لم يعد بوسعنا التوجه إليه كــ*أنت*، أسوء من الحقد وأقسى من الكراهية؛ غالباً ما يكون النسيان.

وأنا فيما أقوله ههنا إنما أتحدث بكل صدق عن نفسي متفكراً، وكإنسانٍ من هذا العالم، بأولئك الذين أحببتهم وابتعدت عنهم خلال حياتي.

لأني ما زلت غير قادرٍ على التشبه بذلك الذي أسجد باكياً عند قدميه وكان قادراً على حبِّ الجميع.

وأتفكر أنه لهذا السبب أجدني خلال حياتي أنسى من أساء إلي. وألاحظ أن عمق هذا النسيان ومداه كان يتناسب دائماً مع عمق الإساءة وعمق الجرح في الفؤاد. كما وكما كان يتناسب خاصةً مع

---

[22] المرجع السابق، الفقرة نفسها.

عمق علاقة المحبة التي كانت تربطني بذلك الشخص الذي انقطعت علاقتي به.

والنسيان، كما يقولون، لا يعني الكراهية. لكنه، إن تفكرنا بصدقٍ، حالة أقرب إلى اللاحبِّ واللاكراهية؛ لأنه انقطاع في كلِّية العلاقة.

لذلك تراني بحاجة إلى المزيد من التأمل من خلال المزيد من الغوص في أعماق نفسي. خاصةً و... **إن الإنسان الذي يكره صراحةً [يبقى] أقرب إلى العلاقة من ذلك الذي لا يحبُّ ولا يكره**[23].

كما قال محقاً مارتن بوبر...

وأنا ما زلت أريد معرفة نفسي...

---

[23] المرجع السابق، الفقرة نفسها.

حول ظاهرة العرفان أو الغنوص

هناك شيء ما عفن في مملكة الدانمارك...

(وليم شكسبير، *هاملت*)

1

على مرِّ التاريخ الإنساني، منذ أقدم العصور وإلى يومنا هذا، كان العرفان أصدق تعبير عن العلاقة الحقيقية بين الإنسان وبين ذلك السرِّ العظيم الذي يحتضنه والمتواجد في قلبه – أقصد ذاته الداخلية الخاصة أو الألوهة.

على مرِّ التاريخ الإنساني، كان هناك أناس تفاعلوا مع الحياة بعمق أكبر من سواهم، فأقاموا مع ذواتهم ومع العالم المحيط علاقةً تكاد أن تقارب حدَّ الكمال. وقد توصَّل هؤلاء البشر العاديين والخارقين معاً، بعقولهم وبقلوبهم، إلى فهم أعمق لأنفسهم وللسرِّ الكبير لهذا العالم، فهمٍ سرعان ما انعكس على من حولهم عرفاناً ما زلنا نعيشه بأشكال مختلفة حتى يومنا هذا.

2

من هذا المنطلق يمكن القول بأن العرفان، أو لنقل مجازاً الغنوص، الذي يعني المعرفة السامية والرفيعة، هو تعبير عن تجربة

روحية لم تفصح عن نفسها عامةً عن طريق علم اللاهوت أو البرهان الفلسفي؛ وإنما، غالباً ما عبَّرت عن نفسها عن طريق الأسطورة. والأسطورة، لا ينظر إليها في هذه الحال كقصة خيالية لا يمكن تصديقها، وإنما كوسيلة ابتدعها الإنسان من أجل التعبير عن مستوى آخر من حقيقة لم يكن بالإمكان تناولها ولا الإحاطة بها من خلال المنطق الفلسفي واللاهوتي السائد.

من هذا المنطلق، سأحاول، فيما يلي، تلمُّس معنى العرفان وتجربته الحقيقية على مرِّ العصور.

وأبدأ بتلك النظرة المتعلقة بالكون وبالعالم الذي نعيش فيه. هذا الكون الذي تناولته المنقولات الروحية لجميع الشعوب، وفي مختلف أصقاع المسكونة، كعالمٍ بعيدٍ عن الكمال. فالبوذية، كالديانات التوحيدية السامية الثلاث التي ولدت في منطقتنا، مروراً بالكتب السرَّانية للحكمة القديمة، نظرت إلى العالم الأرضي كعالم قميء يسوده الألم والعذاب والموت.

من هذا المنطلق، وكتعبير بليغ عن القماءة المفترضة لعالمنا، فلنتأمل معاً – كالغنوصيين القدامى – في دورة الحياة بحدِّ ذاتها، حيث تتغذى كلُّ الكائنات الحية من بعضها البعض، فالكلُّ يقتات من

الكلِّ بدءاً بالدود الذي في التراب، وصولاً إلى الإنسان. لا بل حتى الحيوانات الأليفة التي لا تأكل اللحم تقضي على حياة النبات من أجل غذائها. وأيضاً، كان هناك دائماً بلاء يصيب الإنسان بسبب الأمراض و/أو الكوارث الطبيعية كالهزات الأرضية، والفيضانات، والحرائق، والجفاف، والانفجارات البركانية، إضافة إلى تلك التي تسبب و/أو يتسبب بها الإنسان مباشرةً بدافع من جشعه كالظلم والاستعباد والحروب والقتل المتعمد. وهو واقع حالٍ ولَّد، وما زال يولِّد، على صعيد عالمنا الموت والدمار والألم. الأمر الذي جعل تلك النخبة التي تحسست ووعت آلامها وآلام الإنسانية وعذابها، وفي قلب الجهالة السائدة والمحيطة بها، تنظر إلى نفسها وكأنها غريبةٌ عن العالم الذي تعيش فيه. من هذا المنطلق، ومن هذا الشعور، ولدت، على الأغلب، هذه الحكمة الغنوصية الجميلة التي تقول إنهم – أي أهل العرفان – في قلب هذا العالم وليسوا منه. وهو شعور ومنظور مبرر بالنسبة لكلِّ إنسانٍ بلغ مثل ذلك المستوى الرفيع من الفهم والحساسية. ولكن...

وهذا هو الأهم فيما يتعلق بموضوعنا، لقد فهم معظم أهل العرفان، بشكل أو بآخر، وفي مختلف أصقاع المسكونة، أن المسؤول الأول

عن عدم الكمال في عالمنا ليس الإنسان، كما افترضت معظم الديانات والفلسفات الأرضية، وإنما ما يتجاوز ذلك الإنسان إلى حدٍّ بعيد – إن لم نقل الألوهة بحدِّ ذاتها.

وهذا شطح يكاد أن يقارب، من المنظور الديني السائد، حدَّ الكفر. تلك الحال التي عبَّر عنها الحلاج ذات يوم حين قال وفي منتهى البلاغة:

كفرتُ بدينِ الله والكفرُ واجبٌ لديَّ وعند المسلمين قبيحُ

وتجدنا أمام ظاهرة في منتهى العمق، ظاهرة تباينت حولها، من حيث الظاهر طبعاً، مفاهيم وتفسيرات أهل العرفان حسب البلدان وحسب المنقول. ولكن هذه المفاهيم والتفسيرات بقيت متشابهة جدّاً من حيث المضمون.

3

لأن أهل العرفان قد حاولوا أيضاً، منذ البداية، وعلى مرِّ العصور، أن يتجاوزوا تلك الحقيقة المرَّة، التي هي *الواقع الذي يبدو قميئاً* لعالم غير مكتمل وغير مثالي من جهة؛ وتفسير علاقة هذا العالم بألوهة يفترض أن تجسِّد الكمال والمثالية من جهة أخرى. فسعوا إلى تجاوز هذا الإشكال عن طريق الحكمة و/أو الفلسفة، كأفلاطون على سبيل

المثال، من خلال التأمل في تناغم الكون وفي عظمة الخليقة. لكن القماءة تبقى قماءة لم يكن بوسع التناغم ولا بوسع العظمة أن يستروها.

كما حاولوا من خلال مفهوم الكارما لدى الديانات والفلسفات الشرقية أن يفسِّروا مسببات القماءة والعذاب الذي يعاني منه الإنسان. ولم يتمكنوا طبعاً من تفسير الكثير. لأنه إن كان بوسع مفهوم الكارما، وفي أفضل الأحوال، أن يبين كيف تتفاعل وتترابط سلاسل العذاب والنواقص والأخطاء والآلام في عالمنا، فإنه لم يكن بوسعه يوماً أن يشرح لماذا وجدت تلك النواقص والأخطاء والقماءات أصلاً.

وهو واقع حالٍ لم يغب عن أهل العرفان الذين وجدوا أنفسهم منذ البداية أمام معضلة مستعصية حاولوا أن يتلمَّسوا لها حلاً.

وكانت مقاربات مختلفة، وأصبح الحل المطروح حلولاً – إن لم نقل أصبح الحلُّ الوحيد لهذا الإشكال الأكبر حلولاً متشعبة ومختلفة من حيث الظاهر ومن حيث العمق. وأيضاً...

لأن هذا الحل لا يمكن تداوله بخفةٍ في العالم الحسِّي والأكثر بساطةً للإنسان في عالمنا الذي تحكمه قسوة الشرائع، أصبحت هذه المعرفة الأعمق من سواها، والناجمة عن تجربة إنسانية أصدق من

سواها، سرّانيةً. ولكن **إضافة *سرِّي* التجارب إلى *ظاهرها* لا يغير من الواقع شيئاً**[24].

فالواقع يبقى واقعاً، والتجربة أو الخبرة الإنسانية مهما عظمت وتعمَّقت تبقى مجرد تجربة وخبرة إنسانية.

من هذا المنطلق، أصبح العرفان يحمل في طياته بذور ما كان يحاول تجنبه. فتحوَّل على مرِّ الأيام إلى مجرد معرفة و/أو إلى مجرد حكمة. إلهي، **كم (كانت) واثقة من نفسها تلك الحكمة التي تخيلت، وفي قلب الأشياء، حجرةً مغلقةً مخصصةً للعارفين ولا تفتح إلا بمفتاح. يا أيتها السرَّانية التي لا سرَّ فيها! يا أيتها المعارف المتراكمة! إنه الــهو، دائماً الــهو!**[25].

لأنه سرعان ما تتحول أعمق المعارف فعلاً إلى عالم تلك الأشياء التي يدعوها مارتن بوبر بعالم الــهو. لأنه سرعان ما تحولت جميع تلك التفسيرات والمعارف، مهما عظمت، وحين حاولت (أو لمجرد أن حاولت) استيعاب وفهم ما لا يمكن استيعابه والإحاطة به، إلى أشياء ومواضيع، أي إلى عالم الــهو.

---

24 مارتن بوبر، *أنا وأنت*، ترجمة أكرم أنطاكي، معابر للنشر، دمشق، 2010.

25 المرجع السابق.

وما لا يمكن استيعابه ولا الإحاطة به – بالنسبة لنا – هو تلك الـ*أنت* الأزلية الكلية التي تستوعبنا، والتي ستبقى حتى النهاية ذلك السرَّ الأعظم الذي يتجاوزنا. وأيضاً ربما لأن **التجربة العلائقية لإنسان الأزمنة الأولى لم تكن أليفةً ولا سارة، إنما كانت بالأحرى قوة أثرت على الكائن وعاشها فعلاً، ولم تكن اهتماماً ظليلياً بأرقام مجهولة الهوية!**[26]

فإننا نجد أن ما عكسته هذه التجربة كان مريراً من جهة، ومتشائماً، فيما يتعلق بالحياة على هذه الفانية، من جهةً أخرى...

ورغم ذلك، يبقى العرفان، كتجربة إنسانية، تجربةً في منتهى الجمال والعمق وتستحق التعرف إليها وفهمها إن شئنا التعرف فعلاً على عالمنا. ومن خلال علاقتنا العميقة مع هذا العالم، إن شئنا التعرف على أنفسنا.

والتعرُّف على هذه الخبرة يقول، من حيث الظاهر، إن إجابة أهل العرفان على تلك المعضلة التي واجهتهم، والمتعلقة بقماءات الكون

---

[26] المرجع السابق.

ونواقصه، وعلاقتها بالألوهة، قد اتخذت منذ البداية منحيين بدا وكأنهما متباينين.

المنحى الأول، كان ذلك الذي اعتمدته الديانات والفلسفات الشرقية القديمة، والذي رفض، أو لنقل تجنَّب، التطرق إلى موضوع وحدانية الألوهة الكاملة والمتعالية، وأكَّد على ضرورة أن يعود الإنسان إلى ذاته من أجل أن يتحقق، ويتجاوز من خلال تحققه عذابات وآلام هذا العالم.

والمنحى الثاني الذي، وإن كان لا يتعارض مع الأول من حيث الغاية، وقاربه في الكثير من التفاصيل، حاول أن يفسِّر تناقضات وشرور عالمنا من خلال تفسير أكثر تعقيداً للألوهة، متخيلاً نوعاً من التراتبية في عوالمها. وهذا ما حصل في منطقتنا حيث تداخل العرفان المنبثق عن الديانات التوحيدية الثلاث – وعلى رأسها اليهودية – مع عرفان الفلسفة اليونانية وعرفان الديانات المصرية والزرادشتية القديمة، فكانت المسيحية، وكان ما تمخضت عنه تلك التجربة العميقة من تصور معقد لألوهة يفترض أن تتصف بالكلية والكمال.

4

لأن أهل العرفان أو الغنوص يؤمنون في نهاية الأمر بألوهة مطلقة، لاشخصية، متعالية، وتتجاوز كل الأكوان والخلائق. وهذه الألوهة، التي هي أصل كلِّ شيء، لم تخلق أي شيء – بالمعنى الذي نعطيه نحن لمفهوم الخليقة. وإنما...

من هذه الألوهة المطلقة، والمتعالية، واللاشخصية انبثقت العناصر التي صنعت الأكوان المرئية وغير المرئية – من هذا المنظور ربما تصحُّ المقاربة الصوفية التي تقول بأن الله متواجد في كلِّ شيء. وأيضاً، من هذا المنظور يفترض أهل العرفان أن بعضاً من تلك العناصر قد ابتعد عن الينبوع، مما انعكس تحولات مؤذية في عملية الخلق. الأمر الذي قد يعني، في المقابل، أن تأليه الكون، أو الطبيعة وما تجسَّد فيها من مخلوقات، هو بمثابة تعبُّد لجزيئات متنافرة وفاسدة؛ حتى وإن كانت هذه الجزيئات، من حيث الجوهر، منبثقة أصلاً من هذا الإله المطلق والمتعالي.

وتتشعب الأسطورة المعرفية الغنوصية في هذا الخصوص. وتعيدنا تلك التشعبات إلى عوالم ما نسميه بـ*الدهور* (الأيونات) Aeons كما هو واضح جداً في بعض المخطوطات الغنوصية القديمة

كأناجيل توما ومريم المجدلية ويهوذا. حيث اتخذت عوالم الدهور هذه مكانها كتجليات إلهية بيننا وبين الألوهة المطلقة والمتعالية. وأيضاً، من هذه الألوهة المطلقة والمتعالية، وبمشيئتها، تمخضت عوالم الدهور عما أصبح يطلق عليه اسم *مملكة التحقق* أو *الامتلاء* Pleroma – البليروما التي تعني التحقق أو الامتلاء الكلي، حيث يتحقق الفعل الإلهي بشكل كامل. وأيضاً...

مما ندعوه عوالم الدهور (أو الأيونات) كان واحد في منتهى الأهمية بالنسبة للغنوصيين، وقد أطلقوا عليه اسم *الحكمة* Sophia (صوفيا). وهذه ولَّدت عبر مسيرتها وعياً ناقصاً – تجسَّد في ذلك الكائن الذي أصبح خالق عالمنا المادي والنفسي، فكان كلُّ ما خُلِق على صورته. وهذا الكائن، الذي افترضوا أنه غير عارف لأصوله، تخيَّل أنه الإله المطلق والوحيد. ذلك الإله الذي يدعوه المنطوق الغنوصي بـــ*خالق الكون المادي* (أو الفيض أو الديميورج أو صانع النصف). وهو إله ذو طبيعة ثنائية انعكست على خليقته التي حملت منه وبسببه جانباً ينتمي إلى الألوهة الحقة؛ الأمر الذي لا يعترف به، على ما يبدو، خالق الكون المادي الذي يتحكَّم بعالمنا الذي أصبح ثنائياً.

لهذا نرى أن البشر يعكسون الطبيعة الثنائية للعالم الذي صنعته تلك الألوهة الناقصة من جهة، ويحملون في ثناياهم، وفي الوقت نفسه، بذور الألوهة الحقَّة من جهة أخرى. أو لنقل من منظور عرفاني آخر، يبدو لي أكثر إنسانيةً وبساطةً وعمقاً، إن: **عالم الإنسان مزدوج، وهذا يتَّفق مع موقفه الثنائي [...] وموقف الإنسان ثنائي، (لأن) هذا يتَّفق مع الطبيعة المزدوجة للكلمات الأساسية التي ينطق بها**[27].

وهو منظور سأتناوله لاحقاً في سياق بحثي.

ونتابع مع المنظور العرفاني–الإنساني السائد محاولين تفهم تلك الثنائية. ونتفكر فيما يفترضه أهل العرفان، والقائل بأن الجنس البشري مكوَّن من عنصرين. حيث العنصر الأول هو ذلك المادي والنفسي الزائل. والعنصر الآخر، الأساسي والأهم، هو ذلك الروحي الخالد، والذي هو تلك الشظية المنبثقة من جوهر ألوهة أزلية ومطلقة، تلك التي يدعوها أهل العرفان رمزاً بـــ (الشرارة الإلهية). لكن...

---

[27] مارتن بوبر، *أنا وأنت*، ترجمة أكرم أنطاكي، معابر للنشر، دمشق، 2010.

5

يبدو أنه لم يكن بوسع البشر، بشكلٍ عام، أن يتلمسوا كما يجب تلك الشرارة الإلهية الكامنة في أعماقهم. وهذه الجهالة – من المنظور الأسطوري للعرفان – يعزِّزها في الإنسان، طبعاً، التأثير السلبي للإله المزيف الذي خلق هذا الإنسان ويريد منعه من التعرف إلى ذاته الحقيقية، وإبقائه مرتبطاً ومتعلقاً بالعالم الأرضي وبمفاهيمه التي تجعل منه عبداً للقوانين الكونية الدنيا. وأيضاً...

هناك واقع أن البشر يختلفون من حيث مستويات الوعي والإدراك. فبعضهم ذو طبيعة روحية Pneumatic، وبالتالي مهيأ أكثر من سواه لتلقي العرفان. والبعض الآخر ذو طبيعة مادية Hyletic ولا يعترف إلا بالعالم المحسوس. كما أن هناك آخرون يحيون من خلال مرآة العقل الذي يحسبونه روحاً، فيخلطون بين الإله المزيف للعقل – الذي هو أيضاً الديميورج – وبين الألوهة الحقة. والجميع يبقى، إلى هذا الحدِّ أو ذاك، أسير العالم المادي الذي يعيش فيه؛ هذا العالم الذي لا يمكن التحرر منه إلا بالموت الذي ينهي دورة الحياة على هذه الأرض ويطلق الشرارة الإلهية من سجنها. تلك الشرارة التي إن لم

تكن مدعَّمة بالعرفان الذي تلقاه الإنسان خلال حياته الأرضية، سرعان ما تعود لتتجسد من جديد – ما ندعوه من منطوقنا بالتقمص.

وهكذا، على مرِّ العصور، وفي مختلف الأحقاب، كانت هناك، ووفق الأسطورة الغنوصية، دورات عرفان وتحقق تتطور من جيل إلى جيل. دورات حققت الحرية لبعض المختارين من البشر الذين أعتقتهم من أسر العالم المادي وجعلتهم يعون حقيقة ما في نفوسهم.

ونسجِّل أن مفهوم تطور الوعي، الذي نتلمسه الآن، قد توصل إليه أهل العرفان منذ الأزمنة الغابرة. وأيضاً...

6

فيما يتعلق بالخلاص، قدَّم العرفان أو الغنوص، تصوراً أجمل وأكثر عمقاً من ذلك المنبثق عن المفاهيم المبسطة لدياناتنا الأرضية. وهنا، لن نسهب في الحديث عن أولئك الذين حملوا، منذ أقدم العصور، تلك الرسالة العظيمة التي هي مساعدة البشر على تجاوز أوضاعهم التعيسة؛ كالبوذا، والناصري، وماني، وأحمد، وسواهم. وإنما، سنتفكر في ذلك المنطق العرفاني الحذق والمعقد الذي حاول، وفي منتهى العمق، مساعدة الإنسانية، الجاهلة لأصولها والغارقة في

مستنقع مشاغل عالمها المادي، على الانعتاق من أغلال هذا العالم وعلى التحقق.

من هذا المنظور، كان الفهم الغنوصي للخلاص أحذق وأجمل فعلاً من ذلك الفهم الآخر الذي قدَّمته الديانات الأرضية. فالخطيئة التي يدعونا الغنوص إلى التخلص منها ما هي أساساً إلا جهل الإنسان لنفسه وبالتالي للبعد الروحي الكامن في أعماقه. ذلك البعد الذي دعى رسل العرفان، على مرِّ العصور، إلى التعرف عليه. وهذا الفهم يؤكِّد على أن الخلاص هو خلاص مباشر وشخصي من جهة، وعام في الوقت نفسه من جهة أخرى.

لأنه خلاص يحفِّز تلك الشرارة الإلهية في أعماق وعي كلِّ فردٍ ولدى الإنسانية ككل.

ويقودنا هذا الفهم، مرة أخرى، وبشكلٍ مباشر، إلى ضرورة معرفة الذات الخاصة والعميقة – تلك المعرفة التي تمنعنا أحوالنا وارتباطاتنا الأرضية من تحقيقها. الأمر الذي يجعل الألوهة الحقة غير معروفة في عالمنا.

والتعرف على الذات لا يمكن أن يتم إلا عن طريق العرفان الذي بوسعه، كما سبق وأشرنا، تحريرنا من شرور هذا العالم، وأن يحفِّز

الشراة الإلهية التي في أعماقنا. لأنكم ... **عندما تعرفون أنفسكم، إذ ذاك ستعرفون، وتَفهمون أنكم أنتم أبناء الآب الحيِّ. لكنكم إذا لم تعرفوا أنفسكم، أقمتم في الفقر، وكنتم الفقر**[28].

وأكتفي من عرضي الموجز والمجتزئ جداً لظاهرة العرفان بهذا القدر. وأعود إلى نفسي لأتفكر في الأمر بمزيد من التمعن متسائلاً، مرة أخرى، ما هو العرفان – أو الغنوص – يا ترى؟

7

أتراه، وكما بينت أدبياته، ذلك التصور الحذق والمعقد للألوهة؟ وتراني أتساءل بكل بساطة حول مدى صحة ذلك التصور الذي قد لا يكون في نهاية المطاف إلا مجرد حالة ذهنية؟ وهو قد يكون حالة ذهنية فعلاً لمجرد أنه حاول استيعاب ما لا يمكن استيعابه، فحوَّل، ومن دون أن يشعر، الألوهة إلى عالم الـــهو!

أم أن العرفان، ومن خلال ما يدعو إليه من عودة إلى الذات، قد انطلق أيضاً من تصور ذهني مشابه يفترض بأن كل ما في هذا الكون المادي والملموس ملوث. الأمر الذي يستدعي كنتيجة وكمحصلة، التجرُّد التام عن المادة والترفُّع عن هذه الحياة. وأتساءل

---

[28] إنجيل توما – 3.

بهذا الخصوص، مرةً أخرى، هل كانت تلك الحكمة التي تقول بأن ابن العرفان هو في هذا العالم وليس منه هي نتيجة ومحصلة لخبرة حياة عارف حكيم أم أنها كانت مجرد تأملٍ حزينٍ في واقع حال حزين؟

وتراني، فيما يتعلق بالإجابة عن هذه التساؤلات، أعود إلى نفسي متفكراً بأني، وقد قضيت معظم حياتي مستقصياً وباحثاً في هذا المضمار وفي أدبياته، ما زلت أجدني وحيداً وحزيناً – تملأ رأسي التساؤلات وتملأ نفسي الشكوك. ولكني...

رغم كلِّ شيء، رغم كلِّ ما قيل ويقال بهذا الخصوص، رغم كلِّ الخيبات والآلام والأحزان، ما زلت أشعر نفسي، إن لم أقل ما زلت مقتنعاً، بأني لست فقط في هذا العالم وإنما منه تحديداً وحصراً!

وفي الوقت نفسه، أجدني، في المقابل، ساجداً عند أقدام أولئك العرفانيين العظام الذين تركوا من خلال سيرهم ومنقولهم أعمق الأثر في نفسي. وأشعر ببعض الراحة وفي نفس الوقت أشعر بحزن عميق...

لأني حين أتفكر بأني قد تعرفت خلال حياتي على العديد من أولئك *العرفانيين*، فإن القليل جداً من هؤلاء قد ترك أثراً عميقاً في

نفسي. آه يا أيها الناصري، يا معلِّمي الأول **كم صادفت خلال حياتي أناساً يدَّعون الانتساب إلى هذا الطريق، وكم استمعت إلى أقوالهم، لأجد نفسي مراوحاً مكاني في النهاية، حزين القلب وحيداً**[29].

وأتساءل عن السبب، خاصةً وأن من أقصدهم ههنا تحديداً هم أناسٌ مطَّلعين، وأكثر مني بما لا يقاس، على أدبيات الغنوص والعرفان على مرِّ العصور. ورغم هذا، لم يكن لما يدعون إليه ولا لما ينطقون به من معرفة تدَّعي الانتساب إلى الحكمة القديمة و/أو تدعو إلى معرفة النفس، ذلك الأثر العميق في نفسي. وأتساءل عن السبب؟!

وجوابي، بكل صدق وبكل صفاء ذهني، هو لأني لم أشعر بأن ما كانوا ينطقون به كان صادقاً بما فيه الكفاية. وهذا هو السبب الذي جعل ما ينطقون به من منقول، ومعظمه كان في منتهى الجمال، لا يترك أثراً عميقاً في قلبي ولا في قلوب الكثيرين.

وهذا هو السبب الذي جعلهم، من خلال كلِّ ما قدَّموه، غير قادرين على التوغل في أعماق تلك النفس التي يدعون إلى التعرف إليها.

[29] مقال *يسوع يا مسيحي*، أكرم أنطاكي، مجلة معابر.

وبالتالي، هذا هو السبب الذي منعهم من عكس معرفتهم بصدق على من حولهم من بشرٍ تعاملوا معهم أحياناً بكل تعالٍ.

إن لم أقل إنهم ما زالوا يتعاملون مع أنفسهم ومع البشر كأشياء لا علاقة لهم بها وليس كبشر يُفترض النظر إليهم كمرآة حقيقية لذواتهم التي لا يتجرؤون على الإفصاح الحقيقي عنها. لأنهم **يتلاعبون مع الغنوص... كأصحاب ذلك المنطق المادي الذي أضحى اليوم شائعاً**[30].

وأيضاً، لأن البشرية التي يتحدثون عنها... **بشرية هو المجرَّدة التي يتخيلها، ويفترضها، ويدعو إليها (هؤلاء) لا علاقة لها بالبشرية الحيَّة التي يمكن فيها التكلُّم بصدق عن الـــأنت. حيث يبقى الصنم هو التخيل الأنبل، وتفسد أسمى المشاعر الوهمية. ولا تبقى الأفكار تتوج رؤوسنا أو تسكنها؛ إنما تطوف بيننا وتفاتحنا. فالإنسان الذي لا ينطق بالكلمة الأساسية يستحق الشفقة؛ والإنسان الذي يتوجه بهذه الأفكار مجردة أو ككلمة سر، وكأنه الناطق باسمها (سرعان ما يتحول إلى) إنسان حقير**[31].

---

[30] المرجع السابق.

[31] مارتن بوبر، *أنا وأنت*، ترجمة أكرم أنطاكي، معابر للنشر، دمشق، 2010.

وهذا من منظوري، هو ما حوَّل هؤلاء (الأصدقاء) إلى مجرد متفرجين يقفون **أمام نهر (ويــ)راقبــ(ون) سير التيار من عَل وما على سطحه من خبث.**

لأن من لا يتجرأ على الغوص في أعماق نفسه حقيقةً وفي أعماق هذا العالم، ويتحمَّل مسؤوليته الكلِّية فيه فعلاً، يبقى رغم كلِّ ادعاءاته المعرفية غير قادر على فهم أي عرفان. وبالتالي، غير قادر على تقديم ما يدَّعيه من خبرة إلى الآخرين.

ولأن الغوص في أعماق النفس، وما ينجم عنه من عرفان هو حالة تعاش بكلِّ صدق كعلاقةٍ عميقةٍ وحصرية مع الذات ومع العالم المحيط. فإني **مما سبق (ا)كتشفــ(ت) أن هناك طريق يقود إلى الله، (و) مما لحق أن هناك فقط طريقاً إلى العدم**[32].

لأن العرفان و/أو الغنوص الحقيقي الذين قدَّمه لنا كبار العرفانيين على مرِّ التاريخ، وترك ما ترك من أثر عميق في نفوس البشر، كان خبرة حقيقية صادقة عاشها هؤلاء كعلاقة صادقة مع الـ*أنت* الداخلية

[32] المرجع السابق.

الخاصة بهم ومع الإنسان في قلب هذا العالم. كان خبرةً عاشوها كأبناء للإنسان وكأناس من هذا العالم. وأيضاً...

لأن ما تمخض عنه هذا العرفان لاحقاً كان ضلالاً بمعظمه، تراني أتساءل مع آخر معلِّمٍ صادفته حول... **ماذا يفيد نفسي إن كان بوسعها أن تنسحب مرةً أخرى من هذا العالم إلى الوحدة، حين لا يكون هذا العالم بحدِّ ذاته، وبالضرورة، جزءاً من تلك الوحدة – ماذا تفيد كلُّ *المتعة الإلهية* حياةً تمزَّقت فأصبحت حياتين؟ إن لم يكن لهذه اللحظة الوفيرة الثراء والسماوية علاقة بلحظتي الدنيوية الفقيرة – ما علاقتها بي إذن، أنا الذي ما زال عليَّ أن أعيش بكلِّ جدية على هذه الأرض؟**[33]

وأتساءل، نعم، وبكلِّ جدية أتساءل: هل حقاً العالم الذي نعيش فيه قميء رغم كل ما نراه ونعيشه من قماءة؟

هل الحبُّ قميء؟ هل العلاقة الجنسية قميئة؟ هل الطبيعة قميئة؟ وهل المادة قميئة؟ وهل فعلاً يجب علينا التحرر من كلِّ ما له علاقة بكل هذه الأمور؟

---

[33] المرجع السابق.

هل الحياة قميئة حقاً؟ وبالتالي يجب علينا أن نترفع عنها.

وأجدني ما زلت أبحث عن نفسي من خلال علاقة أريدها صادقة مع نفسي ومع هذا العالم.

لأني أريد معرفة نفسي...

في البدء كان العلاقة

... والكلمة كان عند الله، والكلمة كان هو الله...

إنجيل يوحنا 1: 1

1

حين نطق التلميذ الحبيب بعبارته القائلة أن: **في البدء كان الكلمة**... أتراه كان يدرك البعد اللامتناهي الذي أعطاه لعلاقة الإنسان بالـ*أنت* الداخلية التي في أعماقه؟ إن لم نقل، لعلاقة الإنسان بذلك السر الأعظم الذي هو الألوهة؟ لا شكَّ بالنسبة لي أنه كان يدرك ما يقول، لأن من كان ينطق بلسانه كان ابن الكلمة أولاً، ولأن ما نطق به كان الكلمة الأساسية أنا–أنت المعبرة عن التواصل الحقيقي بينه وبين ذاته ثانياً. وأيضاً...

فقد كان بتواصله العميق هذا يعبِّر عن حاجة تجاوزت بمراحل الخوف البدئي والغريزي للإنسان من ذلك المجهول الذي ندعوه مجازاً بالموت. ذلك الناجم عن إمكانية الانقطاع الكامل عن التواصل مع الحياة عموماً ومع الذات الداخلية الخاصة تحديداً. فقد كان ينطق بلسان المحبة الحقيقية الشاملة لمن أضحى جزءاً لا يتجزأ من ذاته من خلال القلب والعقل و... العلاقة.

إنها العلاقة! دائماً العلاقة!

2

وأتفكر بذلك السر الأعظم من هذا المنظور العلائقي. ليس لأنه لا يمكن لأحد في الحقيقة أن يبين بالتحديد و/أو بالبرهان العلمي والحسي الملموس والمباشر ماهيته وحقيقة وجوده أو عدمه. فالبعض يعتقد أن بوسعه ذلك؛ وأنا أحترم قناعات هذا البعض وخبرته. ولكن...

لأني أبحث عن نفسي، فإني سأحاول من منظوري، وانطلاقاً من تجربتي الحياتية المتواضعة، ومن علاقتي مع ذاتي ومع العالم المحيط، أن أتلمس، من منظور علائقي، ما انطبع في عقلي وقلبي وما فهمته من تلك الذات الداخلية. وقد تطلب الأمر مني حياةً بكاملها لأتوصَّل إلى بعض فهم شبه متماسك بهذا الخصوص.

قلت حياةً بكاملها، وأنا الآن على مشارف النهاية أسترجع من خلال ذكرياتي كيف كانت تجربتي بهذا الخصوص. لأني والحقُّ يقال، ورغم أني قضيت طفولتي وسنيَّ شبابي الأولى في مدارس دينية مسيحية[34]، إلا أن ألوهتكم لم تكن يوماً ذلك الموضوع الذي كان

---

[34] مدرسة راهبات الفرانسيسكان، مدرسة الأخوة المريميين، مدرسة الآباء العازريين.

يؤرقني كثيراً في تلك المرحلة المبكرة من حياتي. والسبب في هذا يعود، لحسن حظي ربما، إلى الجو المتحرر الذي كان سائداً في عائلتي التي لم تكن معروفة بتدينها الشديد. فقد كانوا يعلِّمونا في المدرسة، وبشكل كثيف، مبادىء الدين المسيحي والأخلاقيات ذات العلاقة بتلك الألوهة، ولكن المناخ السائد في العائلة، والذي لم يكن يعبأ كثيراً بهذه الأمور، كان دائماً يعدل الكفَّة.

وتعود إلى ذهني بهذا الخصوص هذه القصة الطريفة: جاءنا ذات يومٍ إلى المدرسة، وكنت يومها في الصف الثالث الإبتدائي، كاهن مبشِّر قضى معنا ساعتين طويلتين لقننا فيهما أموراً تتعلق بالدعوة الإلهية. وخاصةً، عبَّر لنا ببلاغة عظيمةٍ ومؤثرة عن حاجة الألوهة، وتحديداً من ثالوثها المقدَّس الربُّ يسوع، إلى من سمعوا صوته من أجل خدمته.

لم أعد أتذكر اليوم بدقة ما الذي قال، ولكني أتذكر بشكلٍ جيد أني تأثرت يومئذٍ إلى حدٍّ كبير بما سمعت، ما جعلني أعتقد آنذاك أن نداء الألوهة قد اخترق قلبي الذي اقتنع بأنه مدعو للخدمة. وقد اقتنعت إلى حدٍّ أنني حين عدت بعيد ظهر ذلك اليوم إلى المنزل، توجهت فوراً

إلى والدي الذي كان جالساً إلى مائدة الطعام مع أمي وجدي وعمي، وقلت له بحماس كبير: بابا، أريدُ أن أصبح كاهناً.

فضحك الجميع، وعلى رأسهم والدي الذي أجابني مباشرةً وهو يضحك: كول .... ولكْ!.

ما قضى فوراً، وبشكل كامل، ومن خلال الضحك، على تلك الدعوة التي كان تتملكني قبل لحظات. وأيضاً...

أتذكر كيف كنت أشعر بالملل وبالنعاس خلال أوقات القدَّاس أو في تلك الساعات التي كانوا يحاولون فيها تلقيننا، ونحن ما زلنا أطفالاً ومراهقين، مبادئ الدين والصلاة والتأمل.

ما يعني أنه لم يكن للألوهة، كما حاولوا تلقيننا إياها في تلك الأيام، وربما تحديداً لهذا السبب، أي تأثير مباشر على حياتي. أللهم، إلا من خلال العلاقة والتأثير المباشر لبعض الأشخاص على مساري في تلك المرحلة، كالأخت كارلا في تلك المراحل المبكرة من طفولتي والتي ما زلت أتذكَّر إلى الآن طيبتها وتفانيها ووجهها المشرق الجميل؛ ووالدي الذي كنت أراقبه كل ليلة حين كان يصلي أمام أيقونة السيدة العذراء قبل أن ينام، فأعجب لصدق انفعاله في تلك اللحظات؛ والأخ بيرناردوس من مدرسة الأخوة المريميين وطيبته

وتفانيه؛ وجدَّي الذي تأثرت كثيراً حين توفي وكان عمري يومها 14 عاماً – وأتذكَّر أني بكيت كثيراً آنذاك لأني فقدت إنساناً كنت شديد التعلق به –؛ والأب يوسف معلولي، من مدرسة الآباء العازريين، الذي رعى بتفانيه وطيبته اللامتناهية شبابي ومراهقتي، والذي ما زلت أتذكَّر كيف استوقفني ذات مرة في الطريق وكنت يومها في صفِّ البكلوريا، وكنت في حينه على وشك أن أصبح شيوعياً، ليقول لي: (أكرم، يا أكرم لقد كان ماركس على حقٍّ حين ثار في وجه الظالمين!).

وأتذكر الأب الشاب جورنياك الهارب من الخدمة العسكرية في الجزائر والذي كان أول من بدأ يمرر لي كتباً ونشرات تتحدث عن أفكار جديدة كان بعضها يتحدث عن العدالة وبعضها الآخر عن الإلحاد. وأتذكر الأب ميشيل عطاالله مدير المدرسة وأستاذنا لمادة الفلسفة لتسامحه. وأتذكر كيف أني في ذلك الحين، وكان عمري يومها سبعة عشر عاماً، وكنت قد تأثرت جداً بما قرأت من أفكار جديدة لم تكن تدرَّس لنا مباشرةً في المدرسة، رفضت الألوهة التي كانت تقدم لنا وأديانها وقررت، بعقل وحماس طالبٍ مراهق، أني غير مؤمن.

من تلك الأيام، وبهذا السياق، يعود إلى ذهني شخصان بالتحديد: الأستاذ ندره اليازجي الذي كان يومها أستاذاً شاباً يدرِّس مادة الأخلاق في مدرستنا، والذي حاول أن يناقشني بمبادىء فلسفته المثالية، فأتذكر أنه سحرني بلطفه ومحبته رغم أني رفضته بشدة لاعتقادي في ذلك الحين بتعارض المبادىء التي كان يدعو إليها مع مبادئي؛ كما يعود إلى ذهني تحديداً الأب ميشيل عطاالله، فأتذكَّر أني، وقد كنت في الصف الحادي عشر، طلبت ذات يومٍ لقاءه كي أحدثه بأمر هام يؤرقني.

(تفضل يا أكرم، ماذا عندك وما الذي تريد إخباري به...) هكذا قال لي يومها مرحِّباً بعد أن دعاني إلى الدخول إلى مكتبه وإلى الجلوس أمامه. وأتذكَّر كيف شعرت في تلك اللحظة بالارتباك قليلاً، ولكني سرعان ما استجمعت شجاعتي وقلت له: (لقد جئت لأطلب منك طلباً خاصاً يا أبونا... أن تُعفِني من حضور القدَّاس الأسبوعي ومن دروس الديانة).

فنظر إليَّ بتعجبٍ وسألني: (ولماذا لا تريد حضور القداس ودروس الديانة يا أكرم؟).

فأجبته، وبكلِّ جلافة: (لأني لم أعد مؤمناً يا أبونا. لأني الآن ملحد ولم أعد أؤمن بوجود الله!).

فابتسم بحزنٍ، وقال لي ببساطة: (كما تشاء...).

وأتذكر كيف خرجت بسرعة من مكتبه، وأنا أتمنى في تلك اللحظة، ومن شدة خجلي من نفسي، لو أن الأرض قد ابتلعتني، متسائلاً ذلك السؤال الذي ظلَّ يؤرقني لفترةٍ طويلة: لماذا، لماذا فعلت ما فعلت؟ ولماذا جرحت مشاعره؟ متفكراً أني لو كنت مكانه لكنت طردت ذلك الطالب المتعجرف والمغرور فوراً من مدرستي. لكنه لم يفعل. إنما ظلَّ، وبكل طيبة، يرعاني كأحد أفضل طلاب المدرسة. لا بل إنه، وحين انتسبت إلى كلية الهندسة، دعاني لكي أدرِّس مادة الرياضيات لطلاب الصفِّ السابع في مدرسته التي كانت أيضاً مدرستي. وأتفكر بأنها ذكريات قد تبدو بسيطة لكنها علَّمتني، ومن خلال العلاقة، وجهاً آخر وأعمق من ذاتي الإنسانية، الذي هو وجه التسامح ووجه المحبة، إن لم أقل الوجه الحقيقي لما نفترض أنه الألوهة.

إنها العلاقة! إنها دائماً العلاقة!

3

تلك العلاقة التي حين تكون مع ذاتنا – وفي قلب العالم المحيط – تجعلنا نحلِّق فرحاً لشدة غبطتنا و/أو، في الوقت نفسه أو في أوقات أخرى ربما، تجعلنا نبكي لتعاستنا اللامتناهية. لأنها...

تلك التي تشعرنا بعمق حين نكون سعداء، بأن الـ*أنا*، التي هي ذاتنا، على انسجام وتناغم تام مع ذاتها، هذه الذات التي هي الـ*أنت* الكلِّية التي في أعماقنا... يا إلهي.

تلك التي حين نكون تعساء، ونمتلك الشجاعة والجرأة على مواجهة أنفسنا، تجعلنا نبكي بصمتٍ لشعورنا بالعار والخجل من أنفسنا، التي هي أيضاً ذواتنا، أي تلك الـ*أنا* التي انقطع تواصلها مع نفسها، وهذه النفس ما هي إلا تلك الـ*أنت* الكلِّية التي في أعماقنا... يا إلهي.

وهكذا، عن طريق العلاقة، والفكر، والحياة، والفعل، تتعمق الخبرة، ويتعمق التواصل مع الذات؛ بمعنى تتعمق علاقة الـ*أنا* الخاصة بي بالـ*أنت* الخاصة بها. أو ربما قد ينقطع الشعور بهذه العلاقة أحياناً لأنها لم تكن عميقة ولا صادقة بما فيه الكفاية. وهذه

العلاقة – أو اللاعلاقة – هي دائماً بيني *أنا* وبين تلك الـ*أنت* الكلِّية التي في أعماقي... يا إلهي.

وأتفكَّر في نفسي وفي حياتي. فأتذكَّر كيف تعمقت قراءاتي وتعمق فهمي من خلال الحياة ومن خلال العمل. فقد كنت ما زلت أقرأ الكلاسيكيات والكتب الماركسية، إلا أني أصبحت أستمتع أكثر بالقراءات العلمية والفلسفية وخاصةً، ووجدتني أعيد قراءة العهد القديم (التوراة) وتحديداً منه أسفار التكوين والمزامير وأشعيا... وأيضاً، أقرأ العهد الجديد وتحديداً منه خطبة الجبل التي من إنجيل متّى، كما أصبحت أستمتع خاصةً بقراءة إنجيل يوحنا.

وبدأت، من خلال هذا التعمق أو بسببه، أشعر ببعدٍ آخر لم أكن أشعر به من قبل. بعدٌ كان يتجذر باستمرار في نفسي مترافقاً مع ازدياد خبرتي الحياتية ومسؤولياتي المباشرة تجاه من أحب.

وتجدني لأول مرَّة في حياتي أحاول قراءة القرآن الكريم، فأفشل في المرة الأولى لضعف تمكني من اللغة العربية في ذلك الحين، ثم أتمكن من قراءته في المرة الثانية.

وأيضاً، على ضوء هذه الخبرة، تعمقت في ذهني وفي قلبي، أبعاد التساؤلات التي كانت تطرحها تلك الكتب التي أصبحت أستمتع

بقراءتها. وخاصةً منها، تلك المتعلقة بذلك الموضوع الأساسي الذي هو الألوهة التي أجدني أحاول اليوم، ومن خلال مراجعتي لنفسي، ومن خلال العلاقة، تبيان ما أتلمس من حقيقتها.

4

لأني بهذا الخصوص، وكالكثيرين، كنت وما زلت أتعامل مع ذلك الموضوع من مستويين:

أولهما، ذلك الذي أتواصل فيه مباشرة مع نفسي ومع العالم المحيط عن طريق العقل والعلم والتجربة الإنسانية الحسِّية المباشرة وغير المباشرة للعالم الذي نعيش فيه بأجسادنا وعقولنا ونختبره بحواسنا وفكرنا.

وثانيهما، ذلك المستوى الذي لا يمكن فصله عن الأول لأنه يتشابك معه، فيستوعبه ويتملَّكه و/أو يخضع له من خلال الذات وعن طريق العلاقة.

وتراني في المستوى الحسِّي الأول أجرِّب وأختبر وأفكر بعقل يحاول أن يكون بارداً. بينما في المستوى الثاني أعيش في علاقة حميمية مع ذاتي. وما بين هذين المستويين هناك دائماً تلك الصلة

التي لا تنقطع إنما تتفاعل في أعماق النفس بين الأفكار والأحاسيس عن طريق العقل والقلب معاً.

وتراني في المستوى الأول، وحين أتفكر بعلوم نشأة الكون مثلاً Cosmogony، ما زلت أتوقف أمام إحدى آخر وأكثر النظريات رواجاً واحتمالاً – ألا وهي نظرية الانفجار الكبير Big Bang. فأتفكر من منظور عقلي أن هذه النظرية العظيمة والمدعَّمة بالتجربة العلمية قد بيَّنت أمور كثيرة من أهمها:

أن للكون المادي الذي نعيش فيه لحظة بداية – ما يعني أنه كما نعرفه لم يكن موجوداً منذ الأزل. وأيضاً...

أن هذا الكون، ووفقاً للنظرية التي وضعها عالم الفلك إيدوين هوبل Edwin Hubble (1889 – 1953) عام 1929 الذي رصد تلك الظاهرة، يتمدد بسرعة تتناسب مع مدى ابتعاد عناصره. ما يعني أنه ليس ثابتاً. وأيضاً...

أن هذا الكون يتبرد، حيث كان وكما افترضته نظرية الانفجار نفسها، حاراً جداً في بداياته. وقد رصد العلماء أرنو بينزيا وروبرت

ولسن[35] عام 1965، بقايا ذلك الانفجار، من خلال رصدهم وقياسهم لإشعاعات كونية عالية الحرارة[36] ومن بقايا تلك اللحظات الكونية الأولى. ما يعني أنه يتطور، وأنه مما يبدو وكأنه مادة صماء، نشأت الحياة. خاصةً وأخيراً...

قد تمَّ اكتشاف وفرة من العناصر الخفيفة كالهيدروجين والهيليوم، الأمر الذي يدعِّم نظرية الانفجار الكبير التي ما زالت إلى الآن من أكثر النظريات المتعلقة بنشأة الكون احتمالاً.

وأجدني بهذا الخصوص، وبعين عقلي وقلبي، أقف أمام العديد من التساؤلات التي طرحتها تلك الاكتشافات العلمية العظيمة. وهي تساؤلات يتداخل فيها العلم بالفلسفة وباللاهوت، وتقودنا إلى أخرى فلسفية منطقية جداً حول احتمال أن يكون نشوء الكون من فعل قوة خارقة غير طبيعية. وهنا تتعمق التساؤلات وتتشابك...

حيث الاعتقاد السائد في الوسط العلمي بأنه لا يمكن أن يوجد شيء خارج نطاق مملكة الطبيعة الكونية والمادية للأشياء التي تتكون

---

[35] حاز العالمان أرنو بنزيا وروبرت ولسن على جائزة نوبل للفيزياء عام 1978 بسبب اكتشافهما هذا.

[36] 2.725 degree Kelvin (-454.765 degree Fahrenheit, -270.425 degree Celsius)

كلُّها من مادة ومن طاقة. وهو أمر أكدته حتى تاريخه أعمق وأعظم النظريات التي درست الخواص الأساسية للمادة، والتي كان أهمها وأعمقها حتى الآن النظرية الكوانتية التي حاولت أن تتلمس تفسيراً أكثر عمقاً للعلاقة بين الجزيئات المادية وبين الإشعاعات، وما انبثق عن هذه النظرية من فرضيات أخرى كان أهمها مفهوم الريبة الذي لفرنر هايزنبرغ؛ ذلك المفهوم الذي أعاد، نسبياً ومقارنةً، وإن قرن بالنظرية الكوانتية التي انبثق عنها، طرح مدى محدودية علومنا الأرضية. لأن الإنسان الذي ما زال **يطوف على سطح الأشياء فيجرِّبها، ويستخلص منها معرفة تركيبها: يكتسب منها خبرة. ويجرِّب ما تمتلكه الأشياء.**

لكن العالم لا يقدَّم إلى الإنسان من خلال التجربة فقط. فالتجربة تقدِّم للإنسان عالماً مؤلفاً من هو وهي فقط[37].

وأجدني هنا تحديداً، وبشكل طبيعي، أمام تساؤلات جديدة تتداخل فيها أيضاً علومنا الأرضية مع روحانياتنا، وخاصةً منها تلك الروحانيات والفلسفات التي منشاؤها الديانات والفلسفات الشرقية

[37] مارتن بوبر، *أنا وأنت*، ترجمة أكرم أنطاكي، معابر للنشر، دمشق، 2010.

القديمة، كما بيَّن ذلك بشكل ملفت للنظر عالم الفيزياء فريتيوف كابرا Fritjof Capra، في كتابه *تاو الفيزياء*، الذي تبين العمق الفلسفي للتساؤلات التي طرحتها تلك الديانات والفلسفات الشرقية القديمة ومدى تطابقها الكبير مع تلك التي تطرحها اليوم الفيزياء الحديثة.

لأنه دائماً، وبشكل طبيعي، تنبثق من أعماق عالم الأشياء، الذي كان وما زال وسيبقى خاضعاً للتجربة الإنسانية عن طريق الإنسان المتفاعل معه والذي يحاول سبر أغواره، تلك الشرارة التي تعيد جميع تلك التساؤلات إلى أعماق الذات الإنسانية – إن لم نقل إلى أعماق العلاقة الحيَّة والأزلية بين ذاتنا وبين أعماقها، أو لنقل بين الـ*أنا* وبين الـ*أنت* كما عبَّر عنها مارتن بوبر.

وتجدني في هذا المجال أتفكر بالألوهة من منظور علاقتي بذاتي. وهنا، بكلِّ صدق أقول إن هذه العلاقة، التي لم تكن يوماً نابعة، بالنسبة لي، من خوف من إله يحاسب و/أو يدين، أصبحت مع الأيام أكثر عمقاً وأكثر حساسيةً.

وأجدني بكلِّ هدوء أصبح عقلانياً (أي من الناحية الفلسفية) وفي أعماق قلبي (أي من الناحية الروحية) مؤمناً بوجود سرٍّ عظيم يتجاوزني ويستوعبني وليس بوسعي تحديده.

لذلك، تجدني في هذه المرحلة المتقدمة نسبياً من حياتي أعاود بأعين جديدة قراءة الكتب المقدسة لدياناتنا الأرضية، كسفر التكوين الذي أصبحت أتوقف عنده، ويقول:

في البدء خلق الله السموات والأرض [...] وقال الله: ليكن نور [...] وفصل بين النور والظلام [...] وكان مساء وكان صباح يوم واحد.

وقال الله: ليكن جلَد وسط المياه وليكن فاصلاً بين مياه ومياه [...] وكان مساء وكان صباح يوم ثان.

وقال الله: لتجتمع المياه التي تحت السماء إلى موضع واحد وليظهر اليبس فكان كذلك [...] وقال الله: لتنبت الأرض نباتاً وعشباً يبذر بذوراً وشجراً [...] وكان مساء وكان صباح يوم ثالث.

وقال: الله لتكن نيِّرات في جلَد السماء لتفصل بين النهار والليل وتكون لآيات وأوقات وأيام وسنين [...] وكان مساء وكان صباح يوم رابع.

وقال الله: لتفضِ المياه زاحفات ذات أنفس حية وطيوراً تطير فوق الأرض وعلى وجه جلَد السماء [...] وكان مساء وكان صباح يوم خامس.

وقال الله: لتُخرِج الأرض ذوات أنفس حية بحسب أصنافها بهائم ودبابات ووحوش أرضٍ بحسب أصنافها [...] وخلق الله الإنسان على صورته وخلقه ذكراً وأنثى [...] وكان مساء وكان صباح يوم سادس.

لأني أصبحت أتلمَّس البعد الروحي للرموز المنبثقة عن تلك المحاولة الإنسانية السحيقة التي حاولت فهم أسرار الخليقة. وأجدها محاولة في منتهى العمق والصدق وتعبِّر عن علاقة فعلية صادقة بين الإنسان القديم وعالمه.

ومن هذا المنطلق أيضاً، تجدني اليوم، مع فريتيوف كابرا، وعن طريق عقل أصبح أكثر تفاعلاً مع أعماقه، أحاول تلمُّس أبعاد تلك الديانات والفلسفات الشرقية القديمة التي تتقاطع كتاباتها ربما مع آخر ما توصلت إليه علومنا الحديثة. فيستوقفني بشكل خاص نصٌّ بوذي يقال إنه بمنتهى القدم، وهو النص الذي استندت إليه السرَّانية الكبيرة هيلينا پ. بلافاتسكي حين قدَّمت عملها الخالد *العقيدة السرِّية*. ذلك الذي جاء في بعض منه، وفيما يتعلق بما قبل الخليقة، أن:

كانت الوالدة الأزلية، متسربلةً بأثوابها المستترة أبداً، قد هجعت من جديد لسبع أبديات.

الزمن لم يكن؛ إذ إنه كان يرقد هاجعاً في الحضن اللانهائي للدهر.

العقل الكلِّي لم يكن؛ إذ لم تكن كائنات سماوية موجودة لتحتويه.

الطرق السبعة إلى الغبطة لم تكن. وعللُ الشقاء العظيمة لم تكن؛ إذ إنه لم يكن من أحد يتسبَّب فيها أو يقع في حبائلها.

وحدها كانت الظلمة تملأ الكلَّ غير المحدود.

وأجدني مرةً أخرى أمام محاولة إنسانية أخرى، لتفسير نشوء الكون ونشوء الحياة والإنسان.

وكل هذا من خلال علاقتي الحيَّة بهذا الكون الذي أنا منه وأعيشه كإنسان من خلال العلاقة. لكن...

5

بيني وبين نفسي، بعين عقلي وبعين قلبي، ما زلت أتساءل عن حقيقة وماهية الوجود الملموس لذلك السر الأعظم الذي يتجاوزني والذي يسمونه بالألوهة. وجوابي على هذا التساؤل يقول: (نعم، وبكلِّ تأكيد، هناك سرٌّ حقيقي عظيم وحيٌّ يتجاوزنا ويستوعبنا معاً...).

لأنه، إن كنا على صعيد الكون مجرَّد مادة تتألف من ذرات ومن طاقة، أي مجرَّد غبار لا يذكر مقارنة بسعة كوننا وعظمته، فإننا،

وهنا تكمن المعجزة الكبرى، غبار يفكر ويحلم ويحب ويتألم، إن لم نقل غبار ألوهة.

وهذا ما أشعر به فعلاً، لا بل هذا ما أصبحت مقتنعاً به تماماً، ويقول إن هناك شيء من هذا ويتجاوزنا. إن هناك ذاتاً، إن لم نقل بعداً حقيقياً يتجاوز الإنسان الذي يشعر به. وبالتالي، فإني أصبحت مقتنعاً بأنه من الضروري السعي إلى التعرف على تلك الذات وفهمها إن كنا نرغب فعلاً في معرفة أنفسنا. وهذا البعد هو...

الكون. وهو المطلق والعدم. ومن خلاله...

هو ذلك الكمون، إن شئتم، وتلك الحركة والمادة والطاقة. وأيضاً...

هو ذلك الألم الذي في قلوبنا، وتلك السعادة، وتلك المحبة...

(أي في اختصار)

هو كل ما نعلم وسنعلم. وخاصة، هو كل ما نجهل وسنبقى جاهلين...

وهذا بالنسبة لي هو البرهان الوحيد والأساسي على حقيقة هذا الذي يتجاوزنا ولا نستطيع تحديده وندعوه بالألوهة.

وهذا ما أصبحت أؤمن به بكل عقلي ومن كلِّ قلبي. تلك الألوهة التي، بكل صدقٍ وسذاجة، أتوجه إليها أحياناً حين أختلي بنفسي مردداً: **أبانا الذي في السموات، ليتحقق اسمك، لتكن مشيئتك، كما في السماء كذلك على الأرض.**

مع التأكيد أنه ستبقى بالنسبة لي، كما ستبقى حتى النهاية بالنسبة لإنسانيتنا، تلك التساؤلات العميقة المتعلقة بطبيعة ذلك *الكائن* وأبعاده.

ولكن هذه التساؤلات أمور تتعلق بالعرفان الحقيقي أو الغنوص الذي سبق وتطرقت له في الفصل السابق.

وأنا كالكثيرين منكم، ما زلت أحاول، من منظوري المتواضع، تلمس أبعاد ذلك العرفان. لأني...

أريد معرفة نفسي.

فهرس

صدر عن دار معابر للنشر

قاموس اللاعنف، جان ماري مولِّر، تقديم: د. وليد صليبي، ترجمة: محمد علي عبد الجليل (بالتعاون مع الهيئة اللبنانية للحقوق المدنية، بيروت)، 2007.

التأمل، جِدُّو كريشنامورتي، ترجمة وتقديم: ديمتري أڤييرينوس، 2008.

على خطى غاندي، كاثرين إنغرام، ترجمة: أديب خوري، تدقيق: ديمتري أڤييرينوس، 2008.

المحبة في العمل، تيك نات هانه، ترجمة: غياث جازي، تدقيق: أكرم أنطاكي، 2008.

كتابات وأقوال للمهاتما م. ك. غاندي، ترجمة: أكرم أنطاكي، مراجعة: هڤال يوسف، 2009.

فلسفة اللاعنف، ديڤيد مكرينولدز، ترجمة: ديمتري أڤييرينوس، 2009.

اللاعنف في التربية، جان ماري مولِّر، ترجمة: محمد علي عبد الجليل، 2009.

ليف تولستوي: مختارات من كتاباته الفكرية والفلسفية، ترجمة: هڤال يوسف، 2009.

سيمون ڤايل: مختارات، ترجمة: محمد علي عبد الجليل، 2009.

البحث عن مستقبل لاعنفي، مايكل ن. ناغلر، ترجمة: غياث جازي، 2009.

أنا وأنت، مارتن بوبر، ترجمة: أكرم أنطاكي، 2010.

التجذُّر، سيمون ڤايل، ترجمة: محمد علي عبد الجليل، 2010.

ملكوت الله في داخلكم، ليف تولستوي، ترجمة: هڤال يوسف، 2010.

صوت الصمت، هيلينا بلاڤاتسكي، ترجمة: أكرم أنطاكي، 2011.

شبكة الفكر، جِدُّو كريشنامورتي، ترجمة: يارا البرازي، 2011.

من البيئة إلى الفلسفة، معين رومية، 2011.
غاندي المتمرد، ملحمة مسيرة الملح، جان ماري مولِّر، ترجمة: محمد علي عبد الجليل، 2011.
غاندي الإنسان، إكناث إيسوران، ترجمة غياث جازي، 2013.

يصدر قريباً:

المنهج الحيوي الطاقي، ألكسندر لوِون، ترجمة: نبيل سلامة.